

نجيب محمد البهيتي

إملاكك إلى ديار بيتنا

التاريخ والأدب العربيين



دار الثقافة

32-34 شارع فكتور هيكو

الهاتف 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

الطبعة الثانية 1406 - 1985

جميع الحقوق محفوظة

الى الامة العربية
أهدي هذا الكتاب



تصدير

يكون في أوروبا ان أستاذنا جامعيا للتاريخ استقال من منصبه لانه وجد ان التاريخ مجموعة من الاكاذيب ، وبما انه قد ضاق بالمعمل في الكذب فقد آثر اعتزال منصبه .

ويقول أحد علماء الإنكليز ، تعليقا على هذه الحكاية : لو قنع المؤرخون بتسجيل الوقائع لقلت الاكاذيب في التاريخ .

ذلك ان منهج العمل الاوروى في التاريخ لا يقف فيه المؤرخ عند الوقائع يقدمها على ما رواها أهلها ، ولكنه يكتفيها ، ويعطلها ، ويعقب عليها ، ويسوقها حسبما اشتهى وراقه ، بعد ان ينفى منها ما شاء ثم يخرج بعد هذه كلها الى الصورة التي ترضيه ، وتسد كثيرا من حاجاته ، وتروى كثيرا من أمانيه وأحلامه ، وتتسجم مع العلة التي اختارها ، وتحقق النتائج التي كان يترسمها من وراء العلل التي اختارها .

وأوروبا حديثة عهد بولوج التاريخ ، وهذا ما يقول به علماءهم : « لم يبدأ العصر الحجري الجديد في أوروبا الشمالية الغربية حتى دخلت سنة الفين وخمسمائة قبل المسيح . أما مصر والعراق فظهوره فيها أبكر كثيرا . ولعل الجنس الإنسانى في مصر قد عبر مباشرة من العهد الحجري القديم (Palaeolithic) الى العهد البرنزى . ففى سنة 6000 ق - م ، بل ومن الممكن ان يكون ذلك فى سنة 8000 ق ، م ، كانت جميع مبتكرات العصر الحجري الجديد (Neolithic) ممثلة فى مصر ، بل انها كانت كذلك مع زيادات جديدة لم توجد فى أى أرض أخرى . وقد وضع ه ، ج - ويلز أول العصر الحجري الجديد فيما بين سنتى 12000 ق ، م ، و 20000 ق ، م ، أما فى شمال أوروبا الغربية فقد استمر العصر الحجري الجديد حتى سنة 1800 ق ، م ، عند ما بدأ استعمال النحاس الاحمر فيه » .

لم يبدأ العصر الحجري الجديد فى أوروبا قبل سنة 2500 ق ، م ، على حين انه بدأ فى العالم قبل ذلك بعشرة آلاف سنة على أقرب تقدير ، وانتهى فى أوروبا الغربية سنة 1800 ق ، م ، أى انها قضت فى ظله نحو سبعمائة سنة فقط على حين ان مصر طفرت من العصر الحجري القديم فى سنة 6000 ق ، م ، الى العهد البرنزى ان لم يكن فى سنة 8000 .

أى ان ما كان يفصل بين مصر وأوروبا فى المرتبة الحضارية لا يقل عن ستة آلاف سنة . ومصر دولة عربية ، وأهلها القدامى الذين بنوا حضارتها من أصل عربى يعنى لا يجادل اليوم فى هذا أحد الا ممار أو مفالط . فاللغة ، والدين ، والمنطلقات الحضارية فى هذه الشعوب العربية كلها تبدأ من بذور واحدة ، ثم تأخذ فى التلون بالبيئة التى انتقلت اليها ، ولكنها تظل أبدا واحدة فى جوهرها ، متفاعلة فيما بينها ، وأهلها جميعا تخططهم موجات من الهجرة مدا جزرا ، سلاما وحربا . والفحص العلمى الشامل لمومياء رمسيس بارقى ما بلغت اليه أجهزة العلم الحديث قد أثبت فى غير مجال للشك ان هذا العربى ابن السلالة اليمنية هو والبربر من أصل واحد فتعانق بذلك طرفانا . ففى هذه العصور التى كانت أوروبا لا تزال تعيش عيشة

الغاية كانت الشعوب العربية قد بنت الحضارة ، ورفعت أركانها ، ورفعت مشاعل النور على طريق الإنسانية تقص كلها أثرها عليه ، وكانت قد صنعت التاريخ ، ولحمت من المعاني الخالدة ، ما هداها الى أن من حق تواصل أجيالها واستمرار حضارتها تسجيل الماضي والحاضر باعتباره أمانة يؤديها الآباء الى الأبناء .

وقد أشرت الى أن أوروبا قد دخلت العصر الحجري الجديد متأخرة جدا : دخلته عام 1800 ق ، م ، فكان أهلها أبنا أهل الأرض تطورا ، ولكنهم عبروه في أقصر فترة : في نحو سبعمائة سنة ، وهي فترة لا تجرى مع هذا الإيقاع الطبيعي لتطور الانسان ، البطيء جدا في الماضي كله ، غير أن هذه الوثنية المفاجئة انما نشأت لعمول جديدة دخلت على هذه القارة التي عاشت في الظلام مئات الالوف من السنين . فلقد راح المصريون القدماء يتصلون بها ، وراح الفينيقيون يرحلون اليها بمتاجرهم يقايضون أهلها بها على ما راحوا يكتشفونه بارض هذه القارة العذراء من معادن كانوا يستخدمونها في صناعاتهم ، ومن بين هذه المعادن النحاس الاحمر ، وبذلك انتقلت أوروبا الى العهد البرنزي بفضل ما قدمه اليها الفينيقيون ، دون أن تمضي في العصور السابقة له مراحل النضج الحتمية .

فكانت نقلة حضارية مفاجئة من صميم العصر الحجري الى قلب العصر البرنزي نقلت تجاوزت فيها النفس الأوروبية البدائية مازل من التطور كانت تقتضى عشرات الالوف من السنين تعيشها في نضج هادئ بطيء يلين النفس ، وينتزعها في رنابة اليمه من المراحل الدائمة في سلم التطور النفسى ، فيزحف بها من الفلطة الى اللين ، ومن الجفوة الى التهذب ، ويرتقى بتطورها الاعتقادي والأخلاقي الى ما يفارق بكثير المنزلة التي ظلت تتحجر عندها من تصور المعبودات على ضوء مفهوم الرئيس المقدس في عهود انسان الغاية الاول ، فلم ينتقل بها وضعها النفسى عن اعتبار ان الحق والقوة صنوان لا يفترقان ، وان الغاية تبرر الوسيلة . واستمرار هذا الوضع فيها ألوف السنين قد جعل النمو العمدى لسكانها يتضخم في ظل غيبة تامة عن ملاحظة التسلسل النسبى فيها ، فلم تعرف لها نسبا ولا أصلا أبويا ترتد اليه وهو غير ما حدث في الشرق العربى .

وقد ظل الشرق العربى يعطى أوروبا كل شيء : الحضارة المادية والحضارة الروحية . ولكن ما كل ما يعطاه الانسان بالذى يقدر على أخذه ، فالحضارة المادية يمكن أن تؤخذ ، ويمكن أن تتعلم ، ويمكن أن ترتقى في يد الناقل لانها في أساس تكوينها مبنية على التجربة المنطقية يدفعها التصور والتصرف العقليين في تسلسل متضاعف الى أن تنفذ طاقتها فتعود الى التهاوى. أما الحضارة النفسية فينت النمو التدريجى البطيء الماضى على خط واحد مستقيم تعبره النفس خطوة واحدة بعد خطوة واحدة عبر ألوف السنين في عملية استمرارية لا تنقطع ، ولا يبديل من استمراريتها توج الحضارة المادية ، وتقلبها بين قمة وقاع ما دامت النفس ترتبطها بفعل ارادتها وتبنيها ، وتقهرها على العودة قبل أن تثبت حبالها لتتتما معا طريقهما على الجادة .

هما حضارتان اذن وليستا حضارة واحدة : حضارة نفسية وحضارة مادية او الاخرى حضارة نفسية ، وتقدم مادية ، الاولى لا تحصل ولكن تسعى اليها النفس من خلال الحقب والقرون المتطاولة ، والثانية تحصل وتتعلم وتلقن في أقصر زمن : ففي خلال فترات الدراسة المحدودة من السنين ومن عمر الفرد يستطيع الانسان أيا كان جنسه وعصره أن يحصل القدر من الرياضيات الذى بنته العقول الإنسانية في طريق تدرجها الطويل في عشرات الالوف من السنين ، ولكنه يعجز عن أن يثب مباشرة الى ادراك معنى التجرد والوحدانية لله تصورا ضميريا راضيا . ونحن نعلم الشامبانزى في شهور قلائل كيف يلبس الريدينجوت والقبعة العالية ،

ويأخذ الكاس بيدين لا ترتجان ، ويشرب .

ولذلك أوجدت أوروبا لنفسها طريقة سلوكها في مواجهة ما لم تستطعها إلى ما تستطيعه ، وصار تاريخها إلى ما هو معروف ، وأصبحت مقاييسها السياسية تتناقى تماما مع المقاييس الاخلاقية ، وأملت بسلوكها على « ماكيافيللي » كتابه . ثم اتخذت من كتاب الرجل الذى تنفست فيه « انجيلها وتوراتها » .

لم يكن لأوروبا تاريخ ، ولا ماضى حضارى يوم وجدت نفسها تجرها الشعوب العربية إلى مواجهة التاريخ وكان محتوما عليها لهذا أن تأخذ ولا تعطى . وكان أسرع وحداتها البشرية إلى التماس ما عند الآخرين هم العناصر الأولى من الاجناس التى دعيت بعد ذلك « باليونان » ، وقد نزحت إلى الشرق حتى تكون على باب العالم المتحضر ، ونزلت آسيا الصغرى تدعوها من كبد الغابة الاضواء المتدفقة للشرق الاوسط . لم تنشأ في أوروبا حضارة الا امتدادا لهذه الجذوة التى قبستها من المشرق والتى ظل المشرق يفيها أبدا ، ولذلك ظل انبساطها في نفس الاتجاه من المشرق نحو الغرب ، فلم ينشأ فيها ابتداء تمدن غربا حتى مع دوام اتصال المشرق بغربها على مدى التاريخ . كان الفينيقيون معلمهم الاولين ، وظلت أجيالهم تترى عليهم في الارض التى نزلوها والتى لا تزال آثار أقدام الفينيقيين منطبعة عليها في بقايا تكشف كل يوم وتدل على أنهم سبقوا اليونان اليها وتتصل فيما بعد ذلك دالة على استمرار اختلافهم عليها ، وتترامى رحلاتهم حتى الغرب الشمالى من أوروبا .

ولكن الحضارة الشرقية العربية كانت تشرق على أوروبا من حيث تشرق الشمس ، وتضى مثل نورها تماما ينداح فوق القريب من هذا الغرب قبل أن يصل إلى البعيد منه .

ولذلك نهضت اليونان أولا ، ولما أرادت أن تتوسع اتجهت نحو الشرق ولم تنظر إلى الغرب . ثم الرومان ثانيا ، ولم يكن الرومان جنسا بشريا خاصا ، ولم يكن تمدنهم الا التفاعل القائم على أكتاف هذه الكتل البشرية المختلفة التى صارت تؤلف ما عرف بالامبراطورية الرومانية، وأهمها وأخطرها أثرا هى العناصر الشرقية العربية التى كانت تطويها القوة الحديدية أولا ثم لا تلبث أن تفرض بعد قليل وجودها في بناء تلك الامبراطورية ، وقصة بناء السفن الرومانية على غرار السفن القرطاجنية أولا ، ويعون من القرطاجنيين ، ثم بناء الاسطول الرومانى بالسفن القرطاجنية التى أخذها الرومان كشرط من شروط التسوية بعد الحرب القرطاجنية الأولى ، وهى الحرب التى بدأت نصرا عسكريا وعملا حربيا لم تهر بالتاريخ عبقرية عسكرية أوروبية الا حصلت دروسه ابتداء أو انتهاء — فكل قائد عسكري أوروبى يعتبر نفسه تلميذا لهانيبال حتى اليوم — كل هذه وقائع في التاريخ معروفة ، ومسجلة ، ولا خلاف فيها . ولم يكن الاقتباس في المادى وحسب ، ولكنه كان في كل شيء . والمكتبة القرطاجنية مشهورة ، وأرسطو يقول بتفوق دستور قرطاجنة على دستور اليونان ، وكتاب « الزراعة القرطاجنى » ترجم إلى اللاتينية . وأسطول قرطاجنة ، وأموالها كانا القوة الدافعة ، والمدة التى حملت سيوف رومة إلى النصر والقوة ولولاها ما قامت الامبراطورية الرومانية ، والفرد الرومانى كان الحية النذلة التى حملت في ظلال العهد الناكث الخراب والدمار إلى المدينة الباسلة ، والحقد البشع ، والحسد الذليل هما اللذان كانا يرددان كل يوم في مجلس شيوخ رومة : « أن دمروا قرطاجنة » ، عبارة تزحف كل لحظة في حشجة الصوت المهتم « لكاتو » الشيخ الفانى الشحيح الكز الذى كان لا يجد في حياته مناعا ولذة قدر ما يجدها في تعذيب عبيده وخدمه . زار بعد الحرب القرطاجنية الرومانية الثانية قرطاجنة فانضح غناها وجمالها ونعمة أهلها بكبد ، فعاد وهجراه هذه العبارة ، والصلىح قائم لم تخالف قرطاجنة من شروطه بندا ، ولم تنفر في جداره

ثغره ، فكانت دعوته الى الغدر والى النكث بالمهد هي النشيد الذى تسمعه الاذن الرومانية فتنرب له على قبحة وبشاعته . ذلك انه كان يمثل امانها ، ويعكس كالمراة أحلامها ، ويصور الانعطاف النفسى على الغدر الواجب من تحت أمن المهد الموثق المكتوب : طبيعة عيش الغابة فى قلوب الضواري ، تعمل وتحكم بسند من عقل فاجر لا يستمتع به الوحش الضارى تحت مظلة تشابك الاحراج والاجام .

لم يمت « كاتو » فى أوروبا أبدا ، فلقد ظل يعيش هناك فى كل قلب ، وتطغ صرخته المدفونة المخنوقة فوق كل لسان ، ويتوثب شيطانه فى كل رأس ، ويقوم تمثاله حيا فى فؤاد كل سياسى ، وتكرر سيرته كل يوم فى كل بقعة من بقاع الأرض الواسعة ما دامت قد دنستها السياسة الأوروبية ، وسجلها التاريخ كتابا دامغا على لسان مكيافيللى وبقلمه فى « الامير » .

ومجلس شيوخ رومة ، وعلى رأسه « كاتو » تمثله اليوم هذه « المستشرقة » السوداء ، وأما « قرطاجنة » فقد غدت ألف « قرطاجنة » ، وأما أهلها فقد أصبحوا قرب المائتى مليون نسمة ، و « قرطاجنات » اليوم ليست محاصرة ، وهى لن تؤخذ أبدا ، ولن تخدع أبدا ، ولن يجد الغدر اليها طريقا . والأرض التى تنبسط عليها « قرطاجنة » اليوم تترامى فى بسيط هائل يقبض على ساحلى محيطين ، ويحتضن بحرين ، وعمقها الاستراتيجى هو العالم الإسلامى بتمامه ، وأهله أزيد من سبعمائة مليون تدور أراضيهم بالعالم كله ، وقوتهم الروحية تتعقد حول قطب واحد : هو « الله الواحد » الذى لا شريك له ، ولا سلطان فى الوجود الا سلطانه . وروح الانسان هى القوة التى لا ترتفع فى الوجود فوقها قوة حينما تعتم بصيانتها ، فالإيمان هو الذى ينسف الذرة ، والدهر قد استدار ، وقد دخل هذا التقدم المادى محافه ، ولن يعود ثانية هلالا ، لان ظهوره كان شذوذا فى مجرى تاريخ الانسان ، وليس الشذوذ قانونا .

والاستشراق هو القناع الختامى لحركة التبشير التى كانت تتبرقع ببرقع الدين وليست الا تعبيرا مجسدا ونثيا عن الاحتراق الداخلى المتناجح بالحق الحاسد فى قلب ابن الغابة على ابن الحضارة العريقة فى موطن الحضارات الباقية .

وقد هزمت أوروبا فى الحروب الصليبية ، وحبست فى مريطها الضيق أخيرا يتقدم الاتراك المسلمين حتى دقت سيوفهم أبواب فيينا ، وانطلقت فى بنينا نوازع الشر الكامن فى القلوب فراحت أراضيهم نفور بالدم والحدق والغدر والخديعة والخيانات تاكل نفسها . ولم يحفظ عليها الحياة والاستمرار الا باب المحيط الأطلسى المفتوح فارتمت فيه على اثر الدليل العربى الى قارتين عذراوين كان العرب يدعونهما « بالبرزة الغربية » فانسفت هذا الموج الفادر الدامى جنسا بشريا برمته ، لم ينالوه بالحرب وانما أخذوه على غرة بالخديعة والغدر المعهود ، والوثوب المباغت على الجنس الآمن فى داره ، المنلقى لهم بالبشر المطمئن ، والنفوس الرضية ، يحسبونهم من جنس آخر كانوا قد تعودوا منه فى ماضيهم أن يطل عليهم آتيا من « مشرق الشمس » حاملا اليهم دائما من نورها قيسا بضىء ، وهدى يهدى . ولعل أخطر تلك الاطلاات الكبيرة كانت بعثة أمير البحر القرطاجنى « هانون » (هانيء) التى حملت اليهم من أبناء قرطاجنة ثلاثين ألف عربى وعربية فوق ظهر أسطول بحرى يبلغ عدد سفنه الستين . وكان هؤلاء العرب القرطاجنيين كانوا يدركون حقيقة هذا الجنس الأوروبى الوحشى فقاد « هانون » أسطوله الجبار عبر طريق متعرجة ، ليضل بذلك من كان يعرف أنهم يقتفون أثره ، وأثر قومه من أبناء ذلك الجنس الفادر الذين عرفوا باسم اليونان ، وكانت « قرطاجنة » تتوقع حتى فى تلك الفترة غدر الرومان فاراد قادتها أن ينجوا بعدد من أبناء المدينة المسالمة التى بنت حياتها على السلام فأبدعت فى فنون السلام ، ثم اضطرت الى الحرب فأبدعت فى فنونها بما لم تبدع بمثله مدينة سواها .

لكن هذا الدم كله لم يطفىء ظما أبناء الغابة الى الدماء في عصرهم الحجري المتصل ، فعادوا الينا تحت صليب التبشير بما دعوه « المسيحية » ، ظلما وبهتانا . وكان المشى في ظل هذه الدعوة الدعية الى نفوسنا يراد تلوينها ، والى مجتمعنا يراد هدمه ، والى مقومات تاريخنا يرجون العصف بها . وكان مشيهم الى هذه الاهداف يأخذ أحيانا صورة « الكتب » يقدمونها أول ما يقدمون الى أبناء ملتهم الذين اتصل بهم شعاع من الاسلام في دورهم فيدد من ظلمة عقيدتهم بعض التبديد وردهم الى الشك فيما كانت تفرقهم فيه كنيستهم من الاضاليل ، فراحوا يرفعون الصوت رفضا للصورة التي أصلها خلال العصور في رؤوسهم رجال دينهم ، ويتهمون هذا المسيح الذي صوروه لهم بالاحتيال والتضليل والزيف .

ولم يكن هؤلاء الدعاة يردون عن عقيدتهم المتهمة سهام الرامين ، ولا يصلحون موجا في هذه المعركة التي أشعلت عليهم كئاشهم نارا ، ونكست صلبانهم اعوجاجا لعل الزائفين عنهم من أبناء ملتهم كانوا يرجونه أن يستقيم ، بل كانوا يضربون عن هذه كلها صفحا ، وينقلون جورا وعمى الى الطعن على الرسول وعلى الاسلام ، في غير فهم للاسلام ، أو اتصال باصوله أو فحص لمبادئه وغاياته ، وانما كانوا ينقلون المعركة الى الكذب الصراح على الرسول ، والى الطعن فيه ضللا وجهلا ، وانحرانا صارخا عن الحقائق التاريخية التي تجتمع بين أيديهم ، وهى وان قلت تقطع السننهم لو أنهم حملوها الى قومهم .

وكانوا يفعلون ذلك في استهتار فاجر ، ظانين بهذا انهم يهدمون في رؤوس هؤلاء الذين نور عقولهم ، وسطع في ضمائرهم شعاع من الاسلام ، قوة الرفض التي تخلقت في أذهانهم للاساطير التي كانوا يحملونها اليهم عن المسيح ، والهذر الذي كانوا يقدمونه اليهم باسم الشعائر .

وبذلك لم ينالوا شيئا من محاولتهم استرداد هذه الطائفة التي رفضت قيادتهم ، ورفضت معها دينهم ، ولم يحصلوا الا العار يحمله السفيه الآثم في معالجة قضايا الانسان الكبرى بهذا الاسلوب الرخيص الذى تتبعه البفايا في تلايحها وتشتاتها في سوق الكساد اكتسابا لعطف الثمارين . لم يقدموا اصلاحا ، ولا تعديلا للمعوج من أمرهم ، ولكننا انصرفوا عن علاج دائيم الى محاولة بث هذا الداء في اجسام غيرهم من الاصحاء نعمة عليهم وحسدا لهم ، متبعين حكمة صاحبهم : على وعلى أعدائى .

وكانت هذه السفافات تساق في كتب تزف الى اصحابهم على هيئة أبحاث تنهج نهجا علميا في ظاهر من الاعتماد على المنطق والخبر ، والنص ، والمرجع . ولكنه النص المشوه المحرف المسوخ الذى يزعم له صاحبه الصحة والسلامة وهو ليس منهما في شيء ، والخبر المكذوب أو الملقق أو المبتكر الوجه ابتداء ليستعين الكاتب به على تكيف القضية التى يريد سوقها للانتهاج بها الى نتيجة يترسمها ليفالط بها أصحابه ، متقدما بها اليهم في اطار من المنطق الطاوى لكل هذه الاكاذيب والانحرافات ، مقارنا أحيانا بين ما ادعاه واردا في القرآن ادعاء كاذبا ، أو جهلا فاضحا بالكتاب الذى نقل عنه زاعما فهمه ، مفترضا قبل ذلك كله الصدق التام لكل ما جاء في النسخ الباقية للتوراة والانجيل على تناقض ما بينها واختلاف صورها ، ومع علمه أن القرآن يخالفه في ذلك مخالفة يثبتها هذا الخلاف القائم بين يديه من صور التوراة بين أيدي الطوائف اليهودية ، وبين الروايات الانجيلية التى تطوع بتسجيلها بعد عهد المسيح طائفة ممن ادعوا أنهم تابعوه في حياته ، أو خالفوه ، ثم وجدوا الضم في ادعاء متابعتهم بعد اختفائه . وهو يعلم أيضا أن هذه « التوراة » و « الانجيل » المتخالفة قد سجلت بعد توارىخ الاحداث

التي تؤرخها ، وبعد التاريخ المزعوم لنزولها بعقود من السنين أو بقرون كما هو الامر في حالة التوراة ، وهذا يقع على الرغم من مرور هذه النسخ المصفاة بالتعديل والتطوير بين أيدي أجيال ومجموعات من القساوسة عملت في تضافر لنفى التناقضات الممكن نفيها منها قبل تقديمها للاتباع . كما يعلم كذلك أن من النسخ المروية للانجيل ما أعدمته الكنيسة أو ما اجتهدت في حبس أصوله عن الناس كما صنعت في انجيل « برنابا » وانجيل المسبح نفسه .

وبين يدي الآن من هذه الكتب الصفراء كتاب تقع طبيعته الثامنة في مطلع القرن السابع عشر ، وسأقدم اسمه هنا تاما واسم ملفقه لتطلع من عنوانه وحده على اختلال العقل ، وفقدان التوازن تحت تأثير التعصب الوحشى المقيت الذى يحكم سلوك هؤلاء القوم في صراعهم النور بأسلحة من الظلام . فالعنوان نفسه وحده يكفى ليطلقك على قدر ما يضره اسم النبي من الحقد على اكبادهم حتى ينضحها فهم يديرون حوله قضية ليست منه ولا له : يديرون حوله قضية اتهام جماعات منهم للمسيح « بالاحتيال » وليس لحمد عليه الصلاة والسلام بها من صلة الا معنى ياكل في صمت قلب القسيس الذى كتب الكتاب : من ان « محمدا صلى الله عليه وسلم » هو الذى كشفت دعوته تزييفهم فيما نحلوه أو نسبوه لعيسى عليه السلام . والكتاب هو :

THE TRUE
NATURE OF IMPOSTEURE
Fully Display'd in the
LIFE OF MAHOMET

WITH
A Discours Annex'd for the vindication
of Christianity From this charge.
Offered to the Confederation of the Deists
of the Present Age.

By Humphry Prideaux D. D. Dean
Of NORWICH

The Fighth Edition, Corrected.

LONDON / :

Printed for E. Curll against Catharine - sterreet in the
Strand, J. Hooke against St. Dunstans Church in
Fleetstreet, W. Mears and F. Clay without
Temple - Bar. MDCCXXIII.

وترجمة هذه الصفحة التي جعلت عنوانا للكتاب هي :

الطبيعة الحقيقية للاحتيال

تعرضها عرضا كاملا حياة ماهوميت

مع

بحث ملحق بها في تبرئة المسيحية من هذه التهمة

موجه الى رابطة المتألهين في هذا العصر الحاضر

ألفها هامفري بريدو - دكتور في اللاهوت

عميد نوريتش

الطبعة الثامنة - 1723

لندن

أما الطبعة الاولى لهذا الكتاب فنقع في سنة 1696 . فكان هذا الكتاب الحقيق المصدر الاول لكل ما جاء به المبشرون ، ومن بعدهم المستشرق وذبولهم ، لم يخرجوا عن اطاره ومحتوياته !

أما رابطة المتألهين فهي جماعة من كبار المفكرين الاوروبيين وجدت في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر . وهي ترفض الديانة في صورتها الشعائرية ، وتنكر القول بالوحي السماوى ولكنها كانت تستخلص من نظام الوجود ومجراه دليلا على وجود الله . وفي تفكير فولتير ، وروسو ، وفرانكلين ، وجيفرسون عناصر تالهيبة .

واذن فقد رفضت هذه الجماعة من كبار مفكريهم فكرة « التثليث » المسيحية ، التي تكرر « التواليت » القديمة على حال كينفتها الكنيسة لمواجهة الظروف الجديدة ، لكي تمضى بها قدما الى التقرب من أفراد مجتمعها الذى لم تكن تؤهله المرحلة النفسية التي كان يجتازها بحكم جدة دخولهم على الحضارة الا لهذا « التثليث » بعد أن أخذوه ابتداء طائفا من الشرق بين ما أخذوا .

وما من شك في أن مفكريهم قد خالطوا الفكر الاسلامى فوقعوا على فكرة « التوحيد » مجردة من غير حواش ، وقامت هذه الفكرة السمحة الحلوة الى جانب هذا التثليث الوثنى الذى أراد مقحموه على الدين أن يصلوا بينه وبينهم بقنطرة من الفلسفة المصطنعة تصور الثلاثة واحدا فلم يقدم ذلك عندهم . وانقلبوا الى « التوحيد » الاسلامى لما لم يروا من عقولهم الا الارتياح الى التسليم بوجود آله .

على أنهم مع ذلك لم يكونوا مسلمين ، فالاسلام لا يتجزأ . ولكن الكنيسة بحس المتوجس الحادس أو القاطع كانت ترى أن الاصل في هذا التحول الفكرى يكمن في اتصال هؤلاء بالفكر الاسلامى - فاعتبرت رسوله مسؤولا .

ومن انحراف المنطق الدال على السخف والتهافت أن يلجا قسيسى بهذه المنزلة من التهيو لعمله الى معالجة أمر هؤلاء المتبردين بالظن على « محمد » . ذلك انه مهما بلغ في الظن على الرسول صلى الله عليه وسلم فانه لن يردهم الى احضان كنيسته ، فهم لم يؤمنوا برسالة

محمد لكي يرتدوا عنها كما لم يؤمنوا برسالة عيسى ، وهم حين رفضوا « التثليث » رفضوه على انه تثليث مسيحي يعلمون انه لا نظير له في الإسلام . والشعائر التي رفضوها شعائر كنسية ، ألقوا بها في وجه كنيستهم دون أن يقول لهم مسلم : ارفضوها . فما دخل المسلمين في هذا ؟ وكان جديرا بمعيد نورويتش الدكتور اللاهوتي أن يواجه كبد الخلاف فيما بينه وبينهم فيقيم البرهان على صحة « التثليث » وعلى خطئ رأيهم في ايتار « التوحيد » ، وأن يقيم الحجة على سلامة الطقوس التي تفرضها الكنيسة على أتباعها ، وعلى أنها أنزلت من السماء . لكنه لم يفعل ، واختار الارتداء في هوة البغي : بأن نال صاحب رسالة لا يؤمن بها هو ، ولا يؤمن بها خصومه . وكأنه أراد أن يقدم لهم مشهدا يسليهم به وهو يلعبه ، ويظهر اليه بعد أن ولاهم ظهره . مشهد خارج تماما عن طبيعة الجو الفكري الذي كانوا يعيشون فيه فهم يضحكون منه ثم يعضون على وجوههم لم يخدشهم خدشا ، ولم يصب عقيدتهم بسوء .

لكن محمدا ودينه كان يمرضهم ، وكان خياله يقض عليهم مضاجعهم ، وكان يحضرهم في كل لحظة فهم يهذون به يقظين ونياما .

وعجيب حقا ، وفادح صدقا هذا الخلل الذي أصاب صاحب هذا الكتاب عقلا ومعرفة ، وقصورا عن الشبوب الى تناول سليم لشيء مما تعرض له من القضايا التي ألصقتها بالنبي وبالقرآن ، وانفلاقا مصمنا صفيقا عن فهم أي شيء من الوقائع التاريخية التي مرت في حياة النبي ، وفي حياة المسلمين ، وكذبا صراحا يكشف عن خلل ذهني عجيب .

فهو رجل يخترع القضايا والوقائع اختراعا ، وينسبها الى النبي والى التاريخ ، ويرتجل العبارات ارتجالا ويدعى وجودها في القرآن والتاريخ ، ويخلص الاحكام بعقلية سقيمة ، ومن مخيلة مريضة ويدعى أنها من الإسلام . ثم يعقب على ما ارتجل التعليق المريض ، فيطلق ما انحط اليه من الشتائم في غير بر بخلق أو عفة أو دين . لم أر قبل هذا « العميد » الكنسي بغيا تعيش تحت ثوب قسيس .

هو رجل يعيش في دوار عقلى ملح ، ففى عقله طنين ، وفي سمعه ونين ، وفي عينه زيف ورقص تضرب معه الصور . تلك هي الصورة التي تنطبع عنه في ذهن قارئه اذا كان يفهم الإسلام ، ويعرف القرآن ، ويلم بالتاريخ ، ويتصل بالحديث النبوي ، ثم يرى ما يقدمه هذا الدكتور اللاهوتي عن الإسلام ، وعن القرآن وعن النبي حتى في أقرب ما يفتح من سيرته ونسبه للمحصل الاولى . ليس كالأطرش في الزفة فحسب ، ولكنه في الزفة كالأطرش الاعمى الذي يأبى إلا أن يصف من « الزفة » ما رأى وما سمع ، ثم لا يقنع بهذا فيزيد عليه ما وقع من الحديث بين العروسين .

ولا أريد أن أنقل لك بعض عجائب علمه ، وغرائب وصفه ، فنلك أمور يجب أن أتنبأ لها بعقل وفؤاد فارغين ، ولست بهذه المنزلة التي يمكن أن ارتقى بها الى الرجل الفذ .

ومع هذا كله فان كتابه هذا قد قدم رؤوس الاقلام التي راح المبشرون يتخذونها ركائز لمساجلتهم الدينية بعده مع المسلمين . ثم كان منهجه في هذا الكتاب المنمق هو المنهج الذي ساد بينهم ، وكانت الخطوط التي اختطها ، والموضوعات التي رمى نفسه في أتونها جهلا من غير فهم هي التي وجهت جهودهم من بعده الى السير فيما ساروا من معالجات ، والى تلمس أنواع الكتب العربية التي أشعرهم جهله بالحاجة الى الوقوف عليها . ومن هنا انطلقوا الى هذه الكتب العربية التي حققوها وطبعوها في بلادهم أو في بلادنا باسم التحقيق العلمي ، وما جاء نشرها الا في محاولة للتسلح في مواجهتنا على الصعيد الديني أولا ، ثم الكفري أخيرا ،

وخاصة بعد أن بدأ فشلهم وهزائمهم فادحين في مواجهاتهم الدينية المباشرة معنا كما سنرى بعد .
على أن انحرافات هذا الكاهن المخرق في كتابه ظلت الحافظ الفكرى لاجيال أتت بعده من المبشرين الذين أرادوا أن يسبقوا على دعاياتهم ظاهرا من العمل التحقيقى ، فمضت تضطرب في كتاباتهم أجلا طويلا ، ثم راحت تتهاوى عند ما شعروا انها أصبحت بحكم مواجهة المسلمين لهم ساقطة الى درك من الحفارة ، ومن وضوح البطلان والفساد حملهم على التخلّى عنها لانها أصبحت تفقدهم احترام انفسهم أمام أتباعهم قبل خصومهم . ولكن النهج ظل النهج ، والهدف ظل هو الهدف ، وقد اجتهدوا بانفسهم في اسقاط ما كانوا بالامس يصورونه الحق عندهم ولا حق سواه .

وظهرت بذلك منهم طائفة تدعى الانصاف ، وتنتظاهر باعطاء الإسلام حقه وتدس السموم خلال هذا الذى كان يظهر لبعض اخواننا الذين سبقونا انصافا منهم وارتدادا الى الحق بالقياس الى ما سبق لهم أن شهدوه من ولوغ القوم في اعراضنا وتاريخنا .

وقليلا ما كان منصوهم ، ولم يكن هؤلاء المنصفون من فئة الرهبان العاملين في خدمة الاستثمار من وراء نقاب من الحيدة العلمية المناقفة — ودائما تعرض ما قدمه هؤلاء للنقض والمعارضة ، أو أحيط بالسكوت والصمت عله يؤدي الى واده واغراقه في طوفان من الاكاذيب والتشكيك .

على أن دعويين من دعاوى ذلك القسيس المخرق بقينا ترفعان في وجه المسلمين : وهما
ما قدمه في الرد على أولئك الذين اتهموا « المسيح » بالكذب والاحتيال ، وهاتان هما :

1 - تعدد الزوجات في الإسلام وحق الطلاق .

2 - أن النبى عليه الصلاة والسلام لم ينسب اليه من المعجزات مثل ما نسب الى من سبقه ممن نبؤوهم أو ألهموهم . ثم جاء طه حسين فنقل عن وسيط منهم دعوى تزوير المرص نسبتهم الى اسماعيل وبناء ابراهيم الكعبة وتوحيده ، وأبى الا أن يزيد من عنده جديدا فنفى هذه كلها جملة ، وكلها مأخوذة من كتاب هذا الكاهن المخرق (ص 72 - 74) .

والرد على الاولى ما هو قائم في حياتهم من الانحراف ومن المخاللة التى تكاد تعتبر فى مجتمعاتهم عرفا عاما شاملا ، لا تخلّى منه المرأة ولا الرجل نفسه الى جانب الزواج الصريح المعلن . ثم لم تلبث الدولة أن واجهت الامر فيه مواجهة التسليم فقنتته ، كما حدث في فرنسا حين أصدرت حكومتها قبيل الحرب العالمية الثانية قوانين تواجه بها تراجع عدد السكان فاعترفت بالمخاللة نظاما مشروعا ، يرث الولد الذى أثمرته حق الارث في أبيه ، ويحمل اسمه ، وبذلك لم تبج للرجل تعدد الزوجات غير الشرعيات الى غير حد فحسب ولكنها أباحت كذلك للمرأة حق تعدد الأزواج الى غير حد ، وجعلت الزنا المظلة المشروعة للنسل ، وأطلقت النسل من قيود الرعاية الأبوية ، ومن حدود السر الطمئن السليم في حياية الدار . ثم أباحت الطلاق يقع في ظل دوامة من التعقيدات التى أوجدتها الاباحات الجديدة .

وأما دعوى المعجزات التى حركها هذا الكاهن الارعن في رد له على « المؤلهة » فجاءت من حيث دلالتها على اختلال المنهج واختلاطه طرازا فذا . وقد ساقها الرجل بدعوى أنه يرد بها عليهم ، وهم في الحقيقة يسوقونها ويرفمونها في وجه جماعته باعتبارها دليلا على كذب من ادعاها ، أو من نسبت اليه .

وهو بنفسه يقول : ان محمدا لم يزعم يوما انه قدم معجزة ، ولذلك فانه يمكن القول

بان هذه « الطائفة المؤلفة » من مفكرى المسيحية المتبردين على كنيستهم لا ياخذون على محبد هذه « الكذبة » على حين أنهم وجدوها عند غيره ، فهو عندهم برىء منها بدليل من الكتاب الذى أنزل عليه ، وباعتراف من هذا الكاهن نفسه استخرج مستنده مما قال انه قرأه عن الإسلام وعن حامل رسالته .

على أن الرجل كان قد جنه « التعصب » الارعن ، فاثبت على صاحبه ما انه لو اراد الدفاع عنه في مواجهة هؤلاء الخصوم لسكت عن اثارته ، ولكنه لم يكن يملك من مرارة الحقد عقله فوق في المحظور .

والواقع اننا معشر المسلمين ننظر الى المعجزات المنسوبة الى عيسى والى غيره من الانبياء نظرتنا الى حقيقة تسليمية نصدقها ايمانا منا باسلامنا . وننتعل لهذا بان للانسانية مراحل من التطور الفكرى والنفسى قد تصلح المعجزة في بعضها دون البعض دليلا مقنعا لكثير من الناس على صحة دعوة صاحبها . ونمو الانسانية يقتضى تغيير وسيلة الاقناع التى يسلح بها النبى من الانبياء . والعصر الذى قد تصلح فيه المعجزة دليلا على صدق صاحبها لا تصلح هذه المعجزة في غيره دليلا على هذا الصدق . والدليل على هذا هو انكاء طائفة « المؤلفة الاوروبية » هذه في تزييفهم دين كنيستهم على قولها بانثبات هذه المعجزة لاصحابها ، وانكار البروتستانت المعجزات جملة الا ما جاء في كتاب « العهد القديم » .

1 - ذلك أن المعجزة قد تكون من غير باب موضوع الدعوة التى يقدمها صاحب المعجزة .

2 - أن المعجزة - كما قدمتها الكنيسة - لم تكن وقتا على صاحب الرسالة التى ادارت حولها وجودها ، فلقد نسبتها الى حوارى عيسى ، والى كثير ممن دعوتهم من دعائنا بالقدسين ورسبتهم كذلك . بل انها تجاوزت ذلك كله الى رفاتهم ، واضرحتهم تنسب اليها المعجزات ، وليس هؤلاء بالانبياء فضلا عن أن يكونوا آلهة . ومعنى ذلك أن المعجزة ليست دليلا على الوهية أو نبوة .

3 - أن المعجزة لو وقعت فان شهودها قلة قليلة جدا ، تتضائل في عددها ، وفي أهميتها بالقياس الى العدد الذى يفترض تصديقه لهذه المعجزة ، ما دامت الدعوة قد قصد بها الى أن تكون دائمة متصلة ، ومن لم ير المعجزة بنفسه وانما جاءه خبرها ثقاقلا لا يدري مصادره ، ولا حقائقه فانه في حل من أن يطلب تكررها حتى يؤمن بصاحبها أو أن يكذبها فان له حق تعليق ايمانه بمن نسبت اليه على رؤية هذه المعجزة كما تعلق ايمان سابقه على رؤيتها حين صدرت لأول مرة عن صاحبها .

4 - أن الاعتراض على المعجزة في وقتها يمكن أن يقع على أساس من التشكيك فى صحتها المرئية بالاتجاه الى القول بانها من باب سحر السحرة الاعين والاسماع والقلوب وقد كان القدامى يؤمنون بالسحر ، وهذا هو ما رد به النبى صلى الله عليه وسلم طلب طلاب الدليل على نبوته وصحة دعوته من معجزة يقدمها لهم فرفض ، وقال : انه انما جاء الناس ليبلغهم ما حمله الله اياه ، وليس له أن يطلب اليه أن يعطيه ما لم ير الله أن يعطيه .

ولقد كانت قريش بقدر ما هى عليه من زعامة وقيادة للدين في الجاهلية ، ثم كانت على قدر ما كانت عليه من الثراء ومن الاتصال بأرجاء العالم في اقامتها ورحيلها ، فلقد كان رجالها يجوبون أرجاء الدنيا في تجاراتهم وفي رحلاتهم ، ويطلمون من دياناتها ومن ثقايلها ، ومن احوال مجتمعاتها بمختلف ألوانها ومرافقها بحيث لم تكن تغيب عنهم صغيرة أو كبيرة في الحياة الدينية

لذلك الشعوب التي خالطوها وعاملوها ، وأخذوا منها وأعطوها . وكانت حياة العرب نفسها في جزيرتها من التعقيد والتركب شأن حياة قوم عايشوا الدنيا بدءا من أفريقيا موغلين في قلبها ، مستعرضيها طيا حتى شمالها وغربها الاقصى ، وحتى آسيا تحملهم سفنهم الى الهند والصين وما وراءهما ، وكانوا في أوروبا يوغلون برحلاتهم في العهد الجاهلي الآخر الى ما وراء رومة ، فهم ليسوا من بساطة الحياة بحيث يمكن أن تمر بهم دعوة دينية تريد أن تنقل كبراء دينهم وزعماء عقيدتهم في مكة وغيرها ، بحيث يقفون مكتوفي الأيدي ، وكان عندهم بحكم تجارهم الدينية العريقة ما يمكن أن يردوا به على النبي ، وما يمكن أن يطلبوا اليه أن يقدمه لهم مما راوه واقعا في أرضهم أو في الأراضى التي اختلفوا عليها من شبه المعجزات .

فلم يكن غائبا عنهم مثلا أن شقا وسطيا كانا يتنبان بالغيب على مقربة من زمانهم ، وكانوا دون شك يعرفون عن عجايز الكاهنات المتنبئات بالغيب في اليونان في ديلفس وغيرها ، الخارئات له في حفيف أوراق شجرة ، أو في أمعاء قربان . كما أنهم سمعوا من دون رب عن ذلك الراهب النصراني الذي كان يعيش في الشام فوق قمة عمود ، ويأتي بالمعجزات التي يصدقها الناس ان حقا أو باطلا ، وسمعوا كذلك من نصارى القسطنطينية وروما عن معجزات أرضة القديسين . . وغيرها .

فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم لهم ما طلبوه من المعجزات من هذا القبيل أو من غيره لما زاد في رأيهم آخر الأمر على واحد من هؤلاء ، فليس يفيد أنه يكون به دالا على رسالة أرسل بها أو دين دعا اليه ، ولدخل معهم في دائرة مغلقة لا يتوقف الدور فيها عند نقطة فاصلة . وقد وصفوه من قبل ذلك بالساحر — فهم يعرفون السحر — وعمل الساحر أشبه بالمعجزة ، ووصفوه بالشاعر ، والشاعر في رأيهم كان شخصا يوحى اليه ، ولكنه لا يرتقى الى صف الأنبياء ، وكانوا في هذه كلها وبها يردون رسائله ويرفضونها ، ووصفوه بالكاهن الذي كان يبنى بالغيب ، فهم يرفضون المعجزات ابتداء لو أنه قدمها لهم من هذا القبيل المطروق الذي عرفوه وألفوه ولم يجدوا من أصحابه انكارا لدينهم بحكم ما قدروا عليه من شبه المعجزة . ولذلك تجاوزوا هذا القدر الذي تحقق لهؤلاء الى نحو لم يتحقق لهم ، لا لانهم كانوا سيؤمنون به ، ولكن لانهم كانوا يرجون شيئا آخر لا يمكن أن يسلمه الشك الإنساني الا الى دمار . فكان أن وقفوا عند أول مرحلة من مراحل هذا السباق العابت الى المعجزة ، ونزل قول الله سبحانه وتعالى :

« ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون » .

لم يكن العصر العقلي الذي كانت تعيشه الدعوة الاسلامية عصر الدليل بالمعجزة . وانما كان عصر الدعوة الى الله الواحد بالدليل المنطقي ، وقد قدمه القرآن ، وبالمعجزة القائمة في جوهر الرسالة من حيث انتهاء معقدها الى الاله الواحد بدليل عقلي مشهود من انتظام الكون حسب قوانين عليا متصلة السيرة والقوة من غير اضطراب ولا اهتزاز .

ومن بعد ذلك تاتي الشريعة لتنظيم الحياة الانسانية ، وتسويد الاخلاق الكاملة فيها تحقيقا للمدالة والسعادة تحت رقابة عليا من الله المائل في كل ضمير .

لقد كانت قريش في طلبها المعجزة مع اصرارها على تزييفها بعد أن تتحقق ، نحاول اتخاذها خطوة الى تعجيز الرسالة ، وبلبلة العقول ، للتمكين لقيادتها في الارض .

ثم انها كانت في نظرتها الى المعجزة اذكى لباً ، وأسبق عقلاً ، وأنفذ رأياً من هذا الكاهن الارعن السفيه الذى جاء ليؤلف رسالة محمد بنك العقلية المتأخرة التى كانت لا يزال أصحابها يعيشون في المراحل الدينية النفسية الاولى بحكم قرب زمان خروجهم من الغاية الى مجاورة أبناء الحضارات العريقة ، والتطور النفسى العميق . ومن غرائب الصدف أن يلتقى طه حسين مع هذا القسيس الاحمق الغبى في ملامح : أولها أن كلا منهما دعى « عميدا » ، وهما معا من « العبادة » على أبعد مدى عقلا وتحصيلا ، وأن تنزلت على أحدهما « العبادة » من عيطة امرأة ، وعلى ثانيهما من « الكنيسة » . وثانيهما التشكيك في انتساب النبى الى اسماعيل ظلت هذه هى سيرتهم الى اليوم ، لم يفيدوا كثيرا من الماضى . على أنهم غيروا في خطوات السير الى تحقيق أهدافهم ، ولكنهم لم يغلطوا قط عن الهدف الذى بدأوا منذ أول اتصالهم بحضارتنا يهفون الى تحقيقه : غيروا التكتيك ولم يغيروا الاستراتيجية ، كما يقولون . الهدف هو ابتلاع المشرق تحت أى شعار وتحت أية راية . والحديث عن الحضارة المسيحية حديث سخيف ، إذ من أين أخذوا هذه العقيدة ؟ ألم يأخذوها من هذا الشرق العربى ، ثم كيفوها وشكلوها لتلائم مع منزلتهم النفسية ؟ وأين هى بعد تلك الحضارة المسيحية من بحار الدماء والخداع التى ظلوا طول وجودهم يخوضونها ؟

— الاستشراق هو الاداة الاخيرة التى يسير تحت شعارها التبشير :

وقد بدأ القوم في تبشيرهم يواجهون علماءنا وشبابنا في مجادلات دينية صريحة فهزموا ، وعادوا بالخزى فيما قدموه من قول ومن كتاب . وأقرب ما كان من مواجهتهم التبشيرية الموجة التى قامت على أكتاف زويمر وجماعته ، وتصدى لها الاستاذ محمد عبده وتلاميذه . فلقد الجأهم الى جورهم ، وردوهم الى مذلة الهزيمة والذل ، وقد عاصرها طه حسين .

ونظروا فوجدوا أنفسهم عاجزين عجزا تاما عن مواجهة الاسلام صراحة ففقدوا المؤتمرات في مصر وفي الهند — وكانت الباكستان اذ ذاك قسما من أقسامها وفي كل يوم يثور بينهم وبين علماءنا صراع فكرى دينى عاصف ينكس فيه رأس التبشير الى الخيض . — وبعد تبادل الراى ، والنقارير الملخصة للنتائج التى حققوها من تبشيرهم ومن دعواتهم الى المسيحية ، تبين لهم أنهم لم يعودوا يربح قط في عملياتهم ، التى اتصلت عقودا . ومن المفارقات المضحكة أنهم لم يستطيعوا تقديم الدليل على وجود ثمرات لدعوتهم الا صورة رجل واحد يتزى بالزى الصعدي قالوا عنه انه انتقل الى المسيحية ، كما قدموا صورة أخرى لرجل صعدي آخر قالوا عنه انه انتقل من المسيحية الارثوذكسية المصرية الى البروتستانتية الأوروبية . وظلت هذه المؤتمرات تجمع ونفض زمتا طويلا ، تلقى فيها الاقتراحات لتنظيم العمل على أساس جديد ، ثم انتهوا آخر الامر الى هذه النتيجة :

1 — « ان مجادلة علماء الدين الاسلامى لم تعد على دعوتهم بخير أبدا .

2 — ان الشباب المسلم اذا ووجه في دينه مواجهة مباشرة اثار هذا في نفسه رد فعل عنيف ، وتحركت قواه الخصبة في الدفاع الكاسح عن دينه .

3 — أن الاسلام دين متعال يخلق في نفس معتقه شعورا بالكبرياء والفخر والامتلاء بدينه . ذلك انه يضع الناس جميعا على قدم المساواة أمام الله ، وأمام الشريعة ، فهو ينظر الى غير دينه نظرة اصغار لانه ليس بين الاديان الاخرى ما يحقق هذه المساواة .

لذلك

1 - يجب أن يلتسوا شيئا من النجاح لدى الفقراء من العامة عن طريق مدهم بالعمى ، وأشعارهم بأنهم يعطونهم العطف الذى يحتاجونه فلا يجدونه . ومضى التنفيذ فى هذا الجانب فى ظل المراكز الصحية التى كانت راهباتهم تنهض بأعبائها ، ويحاولون أن يستدرجوا الضعاف إليها طلبا للدواء ، فيفروهم بالانتقال الى المسيحية ، ولم تتمر هذه الوسيلة بدورها الا فيما هو أقل من القليل . وكان ساعد المبشرين فى هذا بعض من لا شبهة فى انتسابه الى التبشير ، ومنهم واحد اشتهر بدور فى الحركة الوطنية ، وما أكثر ما خطب فاقبىس من القرآن الكريم .

2 - لا يواجه الشبان مواجهة صريحة فى دينهم ، ولا تثار المناقشات معهم فيما يمسه من قريب . وإنما يجب أن تكون المجالس التى يحضرونها شبه ندوات فكرية تحرك فيها المناقشات حول أمور فكرية مختارة تنعكس نتائجها على الدين من بعيد بحيث تثير شك المسلم فى دينه وفى كتابه بعد أن يذهب مقتنعا بها . ولم يكن لشبابنا من الاتصال يومئذ بمثل هذه الموضوعات ما يضعه منها موضع هؤلاء الرهبان الذين كانت تحضرها لهم ما يعرف عندهم « بالمجموعات الديوانية » من الرهبان الذين درسوا التبشير ، واتصلوا بحكم الصراع الفكرى الطويل بينهم وبين العلماء المسلمين ، بجانب من الفكر العربى .

وقد نشرت تفاصيل مواقمهم المهتزة هذه كتبهم الخاصة بهم التى يطبعونها للتبادل بينهم فهى لا تباع ، ولا توزع الا على جماعتهم وعلى الداعين بدعوتهم . وهم يطبعون على صفحة عنوانها العبارة الآتية : « للاستعمال الخاص » . وقد سقطت فى يدي منها مجموعة كانت تباع على سور الازبكية بالقاهرة بعد الحرائق المشهورة التى نظمت لتأجيجها دولة أجنبية حسدت لها أيديا مصرية للتخلص من حكم الوفد الذى كان قد رفض ارتباط مصر بأى تحالف أمريكى ورفض من قبل ذلك الفصل بين مصر والسودان : شطرى الجسد الواحد ، ثم قاد الفدائين المصريين ضد الجيش الانجليزى النازل على القناة فى معركة ناجحة ، قالت أوساط « الامم المتحدة التى كانت تجتمع اذ ذاك فى باريس : انه لو استمر المصريون على نضالهم هذا شهرا آخر فانه لا بد أن يجلو الانجليز عن مصر .

ووقعت تلك الحرائق فى السادس والعشرين من يناير سنة 1952 ، وكان نادى التيرف كلوب الانجليزى من بين المباني التى أشعلت فيها النار ، فألقى بما كان فى جوفه من كتب كان من بينها تلك المجموعة من كتب الهيئات التبشيرية الخاصة التى انتهت الى سور الازبكية فاشتريتها . كانت هذه اعترافاتهم ، بعد أن عرفت ان استبدالا وتخريجا من سيرتهم ، ومن دراستى لاعمالهم .

وكانت هذه القرارات أمرا للمبشرين بالتحرك الى مواقع العمل الجديدة تحت شعار « الاستشراق » . وارتدت هذه القوى المتنوعة طيالىس العلماء ، وتقدمت بأبحاثها حول « الشعر الجاهلى » باعتباره أقدم نص عربى سبق الإسلام ، وسبق نزول القرآن ، واعتبر أساس المعجم اللغوى المتخذ لتفسيره . وكان الرأى أن زلزلة القاعدة التاريخية التى تقوم فوقها تلك القصائد عن طريق التشكيك فى حقيقتها التاريخية باسم « البحث الجديد » « والمنهج » المخالف للمناهج القديمة ، كقيلة بان تضع المعجم اللغوى الذى يفسر على ضوءه القرآن فى أتون يذبيبه ، ويفتح بعده الباب الى القول : بان القرآن من صنع النبى ، أوجد له ألفاظه الخاصة ، واستعمالاته الخاصة التى لم يكن يعرفها سواه ، فادعاء اعجازها ،

ووقوف العرب منه موقف الحيرة التي وصفت بالعجز لم تكن من العجز في شيء ، لانه ليس من مآلوف لغتها ، ولا من الامور الواقعة في طباعها . ويلي ذلك تفسير القرآن لتخليص الاصول الشرعية والاحكام والتنظيم في الاسلام ، فان الامر فيه بعد ان سقط الشاهد الجاهلى أن يصبح معتدا على غير معجم ما دام المعجم مستمدا من الشعر الجاهلى . ثم مضت الطريق تمتد وتتسع ، فتناول التاريخ الجاهلى مع الشعر الجاهلى ، ودخلوا على نفي نسبة النبى الى اسماعيل عليه السلام ، ونسبة بناء الكعبة الى ابراهيم ، وراحوا ينكرون أن للتوحيد أصلا في بلاد العرب . فكان الهدف القرآن الكريم ، ومضى من بعد ذلك السيل حتى تجاوز القمم الشماء من الاصول الاسلامية . وقدم ذلك كله باسم نتائج البحث « الاستشراقى » . وساعدهم في هذا التخريب انطواء جماعة من علمائنا الدينين السابقين على عدااء للجاهلية قضى عليها ، في غير تدبر للنتائج ، أن تمحو التاريخ الجاهلى ، وأن تشوهه طائفة بمحوه وتشويهه أنها تخدم اسلامها فاعطت عدو الاسلام القاعدة التي انطلق منها الى زعم أن الاسلام لم يخرج من الجزيرة العربية وانما شكله محمد مما تلقفه من النصارى واليهود ، وسترى في هذا الكتاب اعترافات صريحة بركوب هذا المحو وهذا التشويه . وسترى ما ينفضه من الحقائق التاريخية الواردة في القرآن عن الجاهلية ، والتشكيك في خبر بناء ابراهيم واسماعيل عليهما السلام للكعبة ، وفي دعوتها الى التوحيد ، عن طريق القول باختلاق هذا الخبر يرجع الى هذا « العميد » المخرق في كتابه الذى سمينه ، وبته يرجع الى « العميد » الثانى طه حسين .

وكانت هذه هي المرحلة التي أنشئت فيها المؤسسة التي دعيت في تاريخنا الفكرى تجوزا وطبوحا « بالجامعة المصرية » القديمة ، وما كانت الا مؤسسة ثقافية عامة يدب اليها من شاء دون شروط أو قيود فالتقت فيها المتباينات ، وأصبحت موردا مباحا للطموحات غير المتوازنة . فدخلها طه حسين وهو الراسب بالجهل المركب في « عالمية العميان » بالازهر ، ولعل الدكتوراة لم توجد ابتداء بهذه المؤسسة المتواضعة الا لانتشاله من الهوة التي القى به اهماله فيها وهو طالب في الازهر ، فلقد كان المشرفون على هذه الجامعة الاسمية يستاجرونه لحسابهم في النيل الزرى بخصومهم : سعد زغلول وجماعته . وكان لا بد من انقاذهم رجلهم ، ففعلوا . وفي مرحلة تبديل التبشير جلده باسم « الاستشراق » ، هذه ، وبحثهم عن منابر ، ونوادى ينشرون منها « علمهم الجديد » ، وعن أبواب ينفخون فيها وهبها لهم « لطفى السيد » في « الجامعة » ، فاوت الموجة من المبشرين الى الارض الخصبة في هذه المرحلة الحرجة من مراحل الانتقال ، وزحفت الى لقائها الطموحات غير المتوازنة ، واندس فيها ذوو الرؤى الفاضة ، والميول الجياشة بكل ألوان الانفعالات والعواطف الحادة خاصة ، والمشرثيون الى « الجديد » من الشباب الذى لم يبتل الحياة ، والمتسكع على الخطوط الفاصلة بين المدارس والمذاهب والافكار والنشاطات .

فانفتحت بذلك الدخول المياغت على الجديد أمام « المنهج التبشيري المكيف » حقول خصبة للعمل التدميرى مهدها لهم لطفى السيد ، هذا الرجل الغريب الاحول ، الذى قضى حياته كلها في حرب الامة التي احتضنته بجناحيها ، والتي دعى بينها بالفيلسوف بلا فلسفة ، وبمعلم « الجيل » ، والجيل هنا والداعى : طه حسين وحده .

ودخل « طه حسين » الجامعة في حماية لطفى السيد وحزبه ، وكان معروف الاسم بما شتم الشتم الذريع لأمع شخصيات ذلك العصر ، والساهاون على تنفيذ منهج «الاستشراق» يتلمسون المطايا التي يقتعدون ظهورها لتذليل الطريق لبلوغ الهدف المترسم . ومن يومها

تولوا أمره ، ومن يومها شعر الفقير المحروم الناقم على المجتمع الذى لم يلق منه في أضيق وحداته فوق أن تسميه من كان يدعوها بأمه : « هذا الشيء » كما يترجم عنها في « أيامه » السود المظلمة ، شعر بما لم يكن قط قد شعر به في ماضيه كله . أشعروه بأنه شيء غير « الشيء » الذى عرف به نفسه من قبل ، وأعطوه « الدكتوراة » في رسالة يقول الرفاعى عنها : انها قد كتبها أربعة .

لم يكن بعد ذلك غريبا أن يسحب « سانتيلانا » الى مجالس الازهرين ليحرج بالوحي المنزل عليه أسانذته الازهرين . ومن هذه « الجامعة الاسمية » وفي رحابها تقدم « المستشرقة » الى العالم العربى والاسلامى باسم « الباحثين والعلماء » وغابت وراء « الهالة الجامعية » صورهم الحقيقية باعتبارهم عمال التخريب للحياة الاسلامية ، وكبدها وقلبها الحياة العربية ، ونسيت الصورة القديمة فيهم للعدو المحدد الاتياب والاظافر بعد أن صار يلتفت من أخص قدمه حتى قمة رأسه بطيلسان العلماء . كانوا يمثلون الذنب في قصة فناء الغابة ، ونفى الجامعة مضى الخط التبشيري القديم في قليل من الترفق عند حمله باسم العلم الى طالبيه ، وكانوا قد أنموا صناعة بوقهم طه حسين في أوروبا وهو الذى لم يحصل على الشهادة الثانوية : أول مؤهل لدخول الجامعة .

وعزلتهم الصورة الجديدة عن صورتهم القديمة ، ومضوا باسم « العلم الجديد » ينفنون سمومهم في أمن واحترام كامل ، وصوت طه حسين المترجج ، المبطوط — المتلجلج في شبه رجولة لا تلبث بعد قليل من التنبه أن ترن في أذنيك انعطافتها على نحو يقارب الخنونة — يدعو لهم في محاضراته ، وفي كتاباته بأسلوبه اللين السهل الذى تأتبه وأنت تظن أن تحته شيئا فاذا بك تخرج بما لا يكاد يكون شيئا الا ما بينه من دعاوى المستشرقة العراض في الطمن على المسلمين . ولست أدري كيف كانت تتعمد في ذهنى المقارنة بينه وبين ولدين في القاهرة : أحدهما كان ينادى على بضاعته بكلمة واحدة هى « البكش » ، وآخر كان يقف فوق كرسى عال أمام محل تجارى في شارع فؤاد الاول يحاول جذب انظار الناس الى متجر قد استأجره صاحبه للدعاية له ، فكان يدور فوق الكرسى دورة راقصة مشيرا بيده الى باب المتجر لا يزيد على قوله : « بص » أى انظر . لم يكن طه حسين فيما قدمه من دعاية تبشيرية يزيد على عمل هذين ، فقد حمل معه من أوروبا بضاعة المستشرقة ليقدمها باسمه للشباب الناشء الفريير .

وكنا نشترى من الاول ما يبيعه لانه صريح ، وكانت الناس تتجمهر حول الثانى لانه خفيف الروح ، ولانه يستخرج من أعماقنا البسمة المرحة .

وقد رأيت هذين الداعيتين بعد سبرى مرحلة طويلة الى جانب طه حسين تلميذا ومعيدا في كلية الآداب فلفلتانى الى أن في سوق العلم دلالين بهتل ما في سوق بيع الاحذية .

لطفى السيد فتح باب الجامعة القديمة أمام هذه « المستشرقة » فأتاح لها في ظل الشرعية العلمية فرصة العمل على تنفيذ برنامجها المخطط ، وطه حسين تكفل بالدعاية لها وبالمناذاة على ما عندها . وكان دخول هذه الموجة التبشيرية الجديدة في زفة العروس الجديدة العامل الاول الذى غطى حقيقتها ، وصرف الناس عن التفكير الا في قيام جامعتهم الجديدة فلم ينتبهوا الى أكثر من أن هذا هو العلم الجديد المأمول .

وبدا التبشير الهادم للتاريخ العربى ، وللدين الاسلامى الذى يقع من كياننا ، ومن

استمرارنا الحضارى موضع القطب من الرعى : اذ انه هو الخلاصة الاولى لتطورنا الاعتقادى على مدى تاريخ حضارتنا الطويل . ولولا ذلك ما توجه الفرييون اليه بسهامهم ، ولولاه ما حشدوا لحره اعلى قواهم .

وكانت سياستهم بالقياس الى بناء طه حسين تتلخص في نقط أربع :

1 — تكبره بالشهادة المصنوعة والدعاية .

2 — نقله نقلا تاما الى معسكرهم عن طريق ايداعه دارا ، واعطائه حياة يصحان القالب الدائم الملازم له في ايامه بحيث لا يخرج منه أبدا على أن يكون هذا القالب من حرير لكنه صفيق لا يلين ولا يتبدل ، وان كان ناعما . ومن هنا كانت المرأة الوفية جدا التى تزوجها في باريس بوساطة قسيس ذكروا انه هو الذى توسط في اقناع أهلها على الموافقة بعد رفض . وأقول انا ان قصة الرفض هذه لم تكن واردة قط ، فالفتاة فقيرة ، ولعل الشقة التى أنزل فيها طه حسين في باريس كانت هي مصدر العيش الذى كانت الام تعيش منه مع راتب ابنتها من عملها على صندوق محل حلالة في الحى الجامعى في باريس . وقد ظلت الام تؤجر غرف هذه الشقة لمن شاء حتى ايام كان « الدكتور محمد القصاص » في باريس ، ويقول لى : انه نزل عندها ليلة واحدة نجا بعدها بجلده ، فلم تبطل في تلك الليلة الحديث عن ابنتها التى تعيش مع زوجها طه حسين في مصر ، وذلك خوفا من أن يبلغ خبر نزوله بشقتها طه حسين فيمسخه قردا . فالام وحيدة ولم يظهر في الافق المعروف لزيارات طه حسين لباريس اى عرض يشير الى اقرباء للزوجة أو خالات أو اعمام أو جد للولاد أو صهر للرجل . وطه حسين لو وجد لها أهلا يصلحون موضوعا للحديث ما وفره .

وقيام القسيس في هذه الحالة بالوسيلة لاتمام زواج نصرانية من مسلم — وهو عمل يناهض شعوره الدينى ويجافى حرفته الاساسية التى كون من أجلها — انما يكون لعقد زواج بين نصرانى ونصرانية بعد التعميد . ووجوده ان صح يظهر القول بان طه حسين قد عمد قبل الزواج من سوزان .

3 — السفر كل صيف الى باريس ، ونفقته تدبر من هنا في مصر ومن هناك . فمن هنا ، حكى لى الاستاذ ابراهيم مصطفى رحمه الله — وكنا بصدد الحديث عن اسراف امراة طه حسين — قال : « ان طه كسب كثيرا ، ولكن اسراف امرأته لا يبقى على شىء . كنت وأنا اودعه على الباخرة الحاملة له الى أوروبا كل صيف أجد رجلا من اصحاب « دار المعارف » في وداعه معى فاذا لقيه سلمه سكا بألف جنيه على مصرف مالى في فرنسا ليغطي بعض نفقاتهم هناك . » اما في فرنسا فقد كان الابن البار الوفى ، يلقي بما يلقي به الاوفياء .

وما عاد طه حسين من أوروبا مرة الا وهو يحمل كتابا كتبه هناك : لا شك في أنه كان يلخص النتائج التى انتهى الاستشراق الى اخراجها في تكتيك العمل المتصل على تنفيذ الخطة المرسومة . لم تكن الكتب جديدة وانما كانت تلتزم الدوران حول نقطة الارتكاز في العمل الاستشراقى : وهى محاولة التشكيك في تاريخنا أو ديننا .

اما الصيف فقد كان الرجل يقضيه هناك في « شامونيكس » في المصيف الجبلى حيث كان ينزل عليه الوحى ، ويتصل بثمار « العلم الجديد » ، « والبحث الحديث » ، بعد أن يقضى في باريس اياما في فندق قديم كان يانس اليه في حى مونمارتر ، وقد دلونى عليه ايام كنت بباريس في صيف سنة 1939 فزرتة فيه .

وقد قال لى بشر فارس : انه اطلع على ملف طه حسين فى وزارة الخارجية الفرنسية ، وقال انه ما كان يمكن أن يتاح له ذلك لولا أنه مسيحى ، ولولا أن له معارف فى وزارة الخارجية الفرنسية .

4 - ثم كان البيت الذى ينزله فى مصر لا بد أن يكون قطعة تتم الصياغة التى عاد بها من أوروبا ، ومن فرنسا خاصة . ولم يكن ينقصه من ذلك إلا السكرتير فكان جزويت القاهرة يتولون توفير هذه اللبسة الأخيرة . وفريد شحاتة كان احدى هباتهم له . كان هبة كاملة لا ينقصها شيء : أعطى له عبدا لا يملك لنفسه شيئا . فهو رهن أمره فى الليل وفى النهار ، وهو عكازته التى يتوكأ عليها حينما ذهب ، وهو عينه وأذنه بل وأنفه ، ما طلبه إلا كان بين يديه . لا يتحدث معه إلا بالفرنسية ، وإذا احتاج الى أمر دعا : يا فريد ، فكان فريد حاضرا .

لقد كنا نرثى لفريد ونسبوه « المنوم » ، فلقد عاش رهن مشيئة طه حسين منذ أخرج من الفرير بالبالكوريا بانما دنياه كلها فى سبيل رجل لم يعرفه قبل أن يعمل معه . خرج وهو فى نعومة أظفاره فنى لا يكاد يتم السادسة عشرة ، وطرد بلا رحمة وقد أشرف على الهرم . ولست أدرى ما الذى أقتنع فريدا بقبول هذا إلا أنى يخيل الى انه كان يمثل فى اقتناعه قصة « الصلب والنداء » المعروفة . أو أنه كان يرى فى طه حسين قديسا من القديسين . ويظهر لى انهم قدموا للرجل مصلوبا آخر فى أعوامه الأخيرة إلا ان الظروف كانت بهذا الآخر أرحم فلقد عاش فريد شهيدا مملوكا فعليا لطفه حسين ما يقارب النصف قرن ، أما هذا فلقد عاش هذه « الشهادة » بضعة أعوام .

وقد قضى طه حسين عمره الطويل كله - الذى جاوز فيما أعتقد التسعين عاما - الأنيافا وعشرين سنة فى مطلقه ، فى هذا القالب الحديدى : بين امرأة نصرانية ، وسكرتير مسيحى منتدب من قبل الجيزويت لا يغيب طه حسين عن عينه ، وهى عين الجيزويت ، وولدين هما كلود ومرجريت ، لا يناديهما الأب أو الام أو السكرتير أو الخادم إلا بهذين الاسمين . وأشهد ما سمعت شخصا ينادى باسم اسلامى فى هذا البيت إلا « طه حسين » « ومحمد » الخادم الاسود .

ليس يستغرب اذن أن تتكرر توبة طه حسين ، وأن يعلنها ثم لا تكاد تظهر حتى يتوب عنها . وكان « صك الغفران » حاضرا بالطبع عن « التوبة » الأولى ، وبدون ثمن .

لم يكن مستغربا فى ظل هذا الواقع الذى اختاره لنفسه أن يرى كل يوم سقوط الآراء التى كان يبشر بها ، ويقتنع بصواب هذا السقوط ، حتى يبلغ به الامر الى حد التبشير بعكسها علميا فيتبع خصومه على طريقهم ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى تسلله فى ظل الوضع الجديد الآمن فيطلق بخوره المسمى الذى اعتاد أن يطلقه . وهى طريقة كان يطفى بها نفسه فيقف فى الموقع الآمن الى أن تلوح له النفرة فيثب ثانية . ذلك انه كان يعلم ان سياسة ترديد الكذب ، والعودة اليه قد تنتهى به الى التصديق ، وهو عمل عدو مخادع وليس عمل العلماء ، وهى سياسة المستشرقة التى كانت دائما هاديه وامامه وحاميها وداعيته .

ولطفى السيد لم يفتح باب الجامعة القديمة والجديدة وحدها لهذه « المستشرقة السوداء » لكنه فتح لهم باب « المجمع اللغوى » بالقاهرة ، ودعاهم طه حسين باعتبارهم الاوصياء على العلم الحديث ، وقادة النهوض باللغة العربية ، فتقاطروا فى عهده على هذا المجمع البائس .

كانت مهزلة شهدتها كلها وعشتها مخالطا فعرفت من هذه الطائفة المناضلة بالباطل

في سبيل تهديم العلم والحق ، في عهد الطلب : شاخت وشادة اليهوديين ثم كراوس اليهودى الأبق من تشيكوسلوفاكيا الى فرنسا طالبا يوم أحس باقتراب الامان منها قبيل الحرب الثانية ، ثم مقابضة ماسينيون عليه طه حسين ببعوث متأخر أرسله في مكاني الى فرنسا على أن يحصل من السوربون على الدكتوراة في مقابل منح كراوس أربعين جنبها شهريا في مصر ، وهو الذى كان يعيش في باريس شبه متسول ، ولم تخسر فرنسا لطلابنا قرشا واحدا ، ولم تصب بكلم فقد منحته (نائيرة الموافقة على) رسالة تقع في مائة صفحة ، وستين ، نقل منها من كتاب واحد مائة وعشرين صفحة حرفا حرفا وكلمة كلمة ، لشيفر . عاد الى مصر دون أن تناقش رسالته — أى قبل أن تصير دكتوراة فعينه طه حسين مدرسا ثم رقاها أستاذا مساعدا بدون دكتوراة ، وقدمه على غيره وهو الطالب الناجح في اللبسانس في الدور الثانى ، على حين أبقى ابراهيم أمين الشواربى ، وهو الدكتور الفعلى العامل في رتبة مدرس منذ سنوات . وكتب ابراهيم رحمه الله نقده لهذه الرسالة في كتيب لم يزد فيه على أن وضع كل سطر في الرسالة المنقولة أمام أصله في كتاب شيفر محمدا صفحته فى الكتاب والرسالة ، وإم ينس أن يرسل منه نسخة الى كل جامعة في أمريكا وأوروبا ، والى كل أعضاء مجلس الجامعة المصرية ، فصيرها فضيحة عالمية ، ثم رفع قضية بها الى مجلس الدولة ، ولكن طه حسين لم يعبا بذلك كله ، فماله هو ، وماذا تهمه سمعة جامعة يدرس كل يوم فيها بالسلم ايمانا منه ببراء المستشرقين وأهدافهم . ومن عجب أن يأتى حكم مجلس الدولة مؤيدا لما قام به طه حسين وشركاؤه من تهرىغ سمعة جامعيتين في القرب : جامعة مصر وجامعة باريس . وكان على رأس مجلس الدولة اذ ذاك السنهورى القانونى الضليع جدا ، وزميل طه حسين القديم جدا ، وأفتى مجلس الدولة بأن على الطالب المرمى أن يتم نعمة الله عليه بمناقشة الرسالة في باريس ، وطار الطالب الى باريس في الصيف ولحق به طه حسين بالباخرة ، ثم نوقشت الرسالة في حضوره وعاد صاحبها متوج الهامة بالفوز غير المبين . ويقول لى القصاص : لم أر أعجب من مناقشة هذه الرسالة — وكان أيامها في باريس — كانت مكتوبة بالفرنسية ، والموضوع فارسى ، والاسانذة المناقشون يسألون بالفرنسية ، والطالب يجيب بالعربية . ما من شك في أن الاستشراق كان قد وضع يده في شخص طه حسين على أصلح أداة للتخريب الداخلى في الحياة العربية . فلقد كانت هذه الشخصية تلقى فيها جميع المناقضات بحيث تكون وعاء مرنا جدا لاحتواء كل ما تفاوتت أنواعه ، وتضاربت صنوفه ، وبرىء بعضه من بعضه :

- 1 — ضعيف الى أقصى حدود الضعف اذا ترك لنفسه ولم يتكئ على غيره .
- 2 — مقتحم شديد الاقتحام ، يرمى نفسه كالحجر المنقض في هوة اذا وجد من يدفعه .
- 3 — فقير النفس والعقل يشب الى الامانى التى تخلقت في قلبه بحكم النشأة المحرومة من كل شيء ، والتكوين الضحل في كل أمر اتصل به ، شيوب من يظن في افلات الفرصة السانحة البوار الى الأبد . فهو بها شج ، واليها مندفع ما دام قد وجد من يؤمن له ظهره . سريع الإنطواء والاسخزاء اذا وجد نفسه منكشف الظهر ، معرضا لعقاب القانون ، وقد فرض القانون عليه مخافته ، شديد الاستهانة بالقانون اذا ما وجد من يحميه من القانون .
- 4 — ناغم أشد النغمة على البيئة التى نشأ فيها ، والواقع ان هذه البيئة قد سلط عليه القدر فيها داءه ، وفقره ، وحرمانه . ولو لم يكن في الرجل هذا التكوين المتناقض لاستسلم لما هو فيه استسلام من نشأوا مثل نشأته لانهم لم يجمعوا في تكوينهم الطبيعى بين التناقضات ، فيحملهم الضد الى ضده .

فلم ينزل القاهرة ليتم نفسه ولكن ليحد اظافره ، وليشبع أنيابه مما حرم منه في القرية الفقيرة ، والاهل البائسين . فكان أول ما طلب الصحف التي يبعث منها بصيحات النقمة على المجتمع ، ويطفهء في رمادها الاغبر حقه على القادرين . وكان لطفى السيد مثله في النقمة على هذا الشعب ، ولكن على أسس مناقضة لما عند هذا المحروم من كل شيء . كان هذا الاحول الداعية الى البراءة من كل أصيل في وجودنا لا يكره شيئا كراهته لاشتياق المصريين الى الحرية ، ولا يضيق بأمر ضيقه بما يستقر عليه هذا الاشتياق من استشعار أصحابه بالاصالة الحضارية التي تجعل مطلبهم الحرية ، والوجود المستقل أصلا من أصول وجودهم . ولذلك نصب نفسه حربا على الحرية ، وعلى الاصالة الحضارية للامة المعتيدة .

فاجتمع لذلك الرجلان المناقضان المتشابهان على الهدف الواحد ، واضيف بالظرف المصنوع نقيض آخر الى مجموعة المناقضات التي كان يتألف منها كيان طه حسين كله . فكان يمثل في « الجريدة » الصرخة النابية في وجه أبناء الشعب ، وهو من الدرك الاسفل منه ، ترفع لصالح الاثرياء ممن يمتصون دماء هذا الشعب . وكان يقرأ اسمه كل يوم في الصحيفة التي سقط عليها بتلمس القربى الذليلة الى أصحاب السلطان يشتم من اجلهم الطبقات التي خُرج من أضعفها .

لذلك لم يكن أمام التبشير في تلك المرحلة التي كان يعبر فيها خط عمله القديم تحت اسم الاستشراق أئمن من هذه اللقبة النادرة القابلة للتكيف على أية صورة تشكل لها ، وعلى هيئة أى قالب تصب فيه . وقد بعث طه حسين الى فرنسا ليصنع هناك تحت أعينهم . وبعث رغم أنف مجلس الجامعة القديمة الذي كان يرفض ارساله لانه لم يكن مهيا للعمل الجامعي الحقيقي بالارضية العلمية التي تستقر فوقها دائما أقدام الباحث العلمي اذا أريد به الى الاندماج في سلك التعليم الجامعي : لم يكن قد اجتاز مرحلة التعليم الثانوي ، وهي المرحلة التي تعتبر حصيلتها النوعية القدر الحقيقي المؤلف للعدة التي يتحتم أن يتسلح به الطالب في توكونه العقلي ، وفي مرانه العامل على مواجهة المشكلات ، وتمكينه من حلها . وقد غاب هذا المعنى عن طه حسين وهو يدافع عن نفسه في مواجهة هذا الرفض الشرعي لسفره ، فكان يبرغم في وجه مجلس تلك الجامعة الاهلية احتجاجه بأنه حصل على « الدكتوراة » ، وما كان أعضاء ذلك المجلس يجهلون هذا ، أو يجهلون الظروف السابقة التي شكلت هذه « الرسالة » في جامعة لا تطلب من داخلها مستوى ثقافيا معيناً ، فلم تكن جامعة رسمية ، وانما كانت مؤسسة ثقافية عامة يأتي اليها كل مريد . وتغلب طه حسين على هذه العقبة ، وسافر الى فرنسا بثقل ضغط « ولى النعم » كما يدعو هو في مذكراته ، ويسمى لا شك فيه من قبل لطفى السيد : النسخة المقلوبة من طه حسين لدى ولى النعم .

وقد أدرك المبشرون خطر هذه الثفرة في تسليح صاحبهم ، ووجدوا لزاما أن يقدموا له منها دبلا ، فيقول طه حسين انه حصل على ليسانس قبل أن يقيد على « الدكتوراة » . ولكنه فضح أصدقائه حين اعترف في « مذكراته » بأن السؤال الذي وجه اليه في امتحانه لهذه الليسانس لم يكن في موضوع الشهادة وانما كان في « الامبراطورية الاموية » ، ولم يخف أن الفضل في هذا الانحراف عن الاختبار في موضوع الشهادة – وهي في التاريخ الروماني – يرجع الفضل فيه الى الورقة التي قدمت امرأته الجديدة الى الممتحن تحملها اليه من قسيس .

واحب أن أنه هنا الى حقيقة تنظيمية في التعليم الفرنسي : وهي أن طالب « الدكتوراة » الجامعية التي حصلها طه حسين – وليست دكتوراة الدولة – كان غير مكلف بتحضير

شهادة دراسية تسبق القيد على الدكتوراة . لكن طه حسين لم يكن قد حصل على الشهادة الثانوية ، وكان القانون يفرض عليه - حتى للحصول على هذه الدكتوراة الجامعية - التي لا تعد في فرنسا شيئاً - أن يكون مؤهلاً بشهادة انمام الدراسة الثانوية ، فكان الواجب رفضه ، ورده الى امتحان يغطى هذه القاعدة ، وييسد هذه الثغرة فوجد هذا الامتحان في ليسانس ليست من أصول ذلك التنظيم الجامعى . ولما لم تكن له حتى القدرة على تعدى هذه العقبة فانه قد امتحن في غير مادة الشهادة التي منحت له اسما ، مع تهنة الاستاذ المتحن له بالشهادة التي نالته بوجود هذه « الفتاة » الجميلة الى جانبه بعد أن قرأ مذكرة القسيس .

ثم عاد الى مصر ليدرس التاريخ الرومانى في ظل شهادة اسمية . والواقع الذى أعرفه عن طريق ابتلائى للرجل انه لم يكن يعرف اللاتينية التى طالما ملا شذقيه بالقول انه درسها فضلا عن جهله الكامل للغة اليونانية .

عاد طه حسين بعد ذلك الى مصر معدا اعدادا تاما للنهوض بالمهمة التى كان قد أعد لها . فحققها بكل سبيل وجده الى تحقيقها :

1 - تكفل بحمل عمل المستشرق الرامى في مخطوهم الجديد الى تهديم الماضى العربى كله ، وبنه عوامل هدمه في نفوس الشباب ، واستغلال نزعة الشباب الطبيعية الى الحرية ، والانطلاق مما عسى أن تصوره الأقلام الدنسة والطاهرة معا قيودا وضعتها التقاليد العريقة حول نزوعه الى الانطلاق .

وهذا هو السر القائم وراء اتجاهى الى كلية الآداب ، ثم الى قسم اللغة العربية دون غيره ، وماضى الدراسى كان رياضيا علميا وتفوقى في الترتيب بالدراسة الثانوية انما كان يأتى معتبدا على مجموعى في الرياضيات والعلوم ، ولم يكن متعلقا من فروع الدراسات في الادب الا بقدر كنت أشترك فيه مع رفاقى . وكان أبى ومن تولى من أهلى أمرى بعد وفاته يجعلون الدراسة الطبيعية لى في الطب أو الهندسة . ولكنى انعطفت أول الامر على القسم الادبى لادخل الحقوق بوصفها الكلية التى كنا نرى أن خريجها هم الناطقون باسم مصر في معركة الصراع مع خصومها .

وكانما كنت أصرف عن طريقى الذى خططته لنفسى بقدر غامض حملنى بهذا التدرج في مشاركة ما كنت وكان غيرى ممن عرفونى يرون أنى قد خلقت له ، الى هذه الكلية التى صادفت فيها هذا الرجل وظنى به في اندفاع الشباب يومئذ انه الداعية الى الحرية في العمل الفكرى ، وما كان لدى قبل أن أخالطه في العمل الجامعى ما كان يصنع حكى عليه الا هذه الاخبار التى كنا نقرأها في الصحف .

ثم جئته في معقله الحصين من وراء تلك الاسوار التى أقامتها حوله الدعاية فما كدت أجلس الى درسه ، وأتابع تفكيره ، وأعمل بنفسى في تحصيل أصول الحكم في القضايا التى كان يعرضها حتى فجمت في الصورة الخيالية التى كانت تقوم له في ذهنى . كان يقع وراء أسوار الجامعة كيانا طريا جدا كما تقوم القوقمة تحت الصدفة ، لا تكاد تمد بيدك الى ما وراء الصدفة حتى تصادف كيانا هالكا .

فلقد لاحظت ذهنا هشا ، ومنهجا زواغا مراوفا ، وهربا الى السكوت عند احتدام الصراع ، ولكنى لاحظت كذلك انه رجل قادر على استغلال الصورة التى أقامته فيها ظروفه

استغلالا بارعا ، يستند على مناصرة قوى كثيرة تعمل كلها في تلك الأيام في تضاد فكان بحكم طول تجربته معها عارفا أين يتكئ ، ومن يختار في الظرف المناسب للاختيار ، لكنه كان على كل حال في الجانب المناهض لكتلة الشعب . ولم أعرف له في فترة تعارفنا العلمى جديدا أضافه في آخرها الى ما قاله في أولها .

كان دائم التكرير لنفسه ، ما يقوله هذا العام يقوله هو نفسه في العام المقبل ، ثم فيما وليه ، حتى النكتة التي كان يرى لنفسه توفيقها كان يعود اليها في نفس مكانها السابق من محاضرة العام الماضي . وكذلك الشاهد الشمري ، بل والمبارة حتى لقد خيل الى انه يحفظ كل ما كان يقوله . وما كان أقله وما كان أشده تمطيطا . ولقد حضرت دروسه مرتين طالبا : متطوعا في السنة الاولى ، ومنتظما فيما تلاها ، ثم حضرتها بعد ذلك كلها بطلب منه وأنا معيد فكان هذا الذي أحدث عنه .

وكل يوم زادنى معرفتى له تراجما في صورته التي كنت قد انطبعت بها قبل ان أشهده . وبدأ الخلاف بيننا في الرأي يصرح عن نفسه في مناقشاتي له في الدرس ، وفي الأبحاث التي كان يكلفني بها . وأول بحث كلفني به كان عن معلقة زهير بن أبى سلمى ، وقد خرجت منها الى نتيجة أذته تماما ولعلها كانت أشد ما أشعره بان اللقاء بيننا سيكون حرجا . ذلك أنني انتهيت فيها الى نتيجتين تهدمان أساس النظرية التي كان يبني عليها كل دراساته في الشعر الجاهلى .

الاولى : ان الحنيفية كانت حقيقة تاريخية قائمة في حياة الجزيرة العربية ، وقد قدمت له أسماء أشهر المتحنفة في الجاهلية ، وأبنت ان الإيمان بالله الواحد كان قائما عند أسس الشرك الجاهلى لان الاصنام انما كانت تمثل قوى وسيطة بين الجاهلى وبين الله الواحد ، وانها لم تكن تنفع من نفوسهم أو عباداتهم موقمه منها ، وقدمت له تلبيات القبائل في الطواف الجاهلى حول الكعبة ، فكل معبود تستأثر به قبيلة يأتى وحده تابعا لذكر الله . وقدمت له ردهم الذي ذكره القرآن الكريم على رسول الله :

« وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وقلت له : ان القرآن ما كان يمكن أن يحكى عنهم هذا القول الا أن يكونوا قالوه ، ولو نحلهم ما لم يقولوه لكذبوه ، ولاستنكروا أن توضع آهنتهم موضع الوسطاء لا الاصلاء .

ثم انطلقت الى النتيجة الثانية ، وكانت أشد عليه وقعا من الصاعقة :

وتلك هى أن شعر زهير الموحد ، الذى يذكر البعث والحساب جاهلى يترجم عن وجود هذه الحنيفية في الجاهلية ، وهو لذلك يثبتها ويثبت بها . وادعاء انتحاله في الاسلام لا مبرر له لانه ينبع من واقع عاشه زهير وشهده ، وعبر عنه في قصيدة تناهض الحرب الجائرة ، وتقبحها وتدينها وتكبر قدر من كف نارها عن جماعته . وموضوعها بذلك وثيق الصلة بالدين باعتباره العامل المقيم « لله » في الضمير رقيقا على عمل الانسان ، المكافء عليه خيره وشره ، فهو مرجع الحكم في آخر الامر بين الجائر والمستقيم على الطريق ، في عالم البعث يوم تحاسب كل نفس عما ركبت من شر . وزهير كان في نظريته الى الحرب يخيف المتحاربين بمقاب الله بعد أن نبههم الى ما جنته عليهم الحرب في دنياهم من سفك دماهم وتقتيل إبنائهم وآبائهم ، وتكديس الثارات بينهم تتضاعف كل يوم :

فتقلل لكم ما لا تغل لاهلها . قرى بالمراق من قبيز ودرهم

وانتهيت الى القول باننا اذا ابخنا لانفسنا نفى الشعر الجاهلى لانه خال من العقائد الدينية التى كانت فى الجاهلية فان أهم العقائد الجاهلية مائل فى هذه القصيدة ، ونحن بنفينا هذه القصيدة ، كأننا نعهد الى نفى الدليل القائم فيها اقتحاماً لكى ننتهى الى نتيجة يعطها هذا الدليل المناسب مع كل ما تحمله البنا الاخبار ، ويؤكد المحيط الدينى الإسلامى ، وهو نوع من التهافت المنطقى غير الجائز فى العمل العلمى . فنحن نطلب الدليل فاذا وجدناه قائماً زيفناه أولاً ، ثم انطلقنا الى ما يثبت الدليل فزيفناه مدعين انه ينقصه الدليل .

وانتهيت من بحثى وانتظرت ما يقوله الأستاذ فاذا به يصمت طويلاً ثم ينطلق فى حديث يثنى به على سلامة تفكيرى ، وحسن استدلالى ، ثم يختم المحاضرة ويخرج بجره « فريد » .

وقد حدث ذلك وأنا طالب فى السنة الثانية (1930 - 1931) ، ولم يكن اللقاء بيننا فى هذه السنة أول لقاء فقد كنت حريصاً على الاستماع اليه فى العام السابق ، أحضره مع طلبة السنين المتقدمة ، واشترك معهم فى بعض العمل المطروح خلال الدرس اذا وجدت نلججهم معينا على التدخل . ولا أذكر أبداً أنى تدخلت فى مناقشة موضوعية أثارها العمل فقد كنت اتحاشى عن ذلك التزاماً لحدود حق المستمع الداخلى على الدرس من خارجه .

ولا أزال أذكر المناسبة الأولى التى أسمعت طه حسين صوتى فسألنى : من أنت ؟ فأجبت طالب فى السنة الأولى : وردت فى بيت من الشعر كلمة (الشكران) وسأل الأستاذ طالبه القارئ للبيت : ما معناها ؟ وأجاب الطالب بان معناها (الحمد) . فقال له طه حسين : أى (الشكر) ، فما هذه الالف والنون ؟ وسكت الطالب ، فرد زميل له : انهما للثنائية . وتوقعت أن يصلحها له آخر ولكن أحداً لم يتكلم . وعاد طه حسين الى توجيه السؤال للحاضرين فلم يجبه أحد . فرفعت صوتى قائلاً : انها صيغة مصدر (شكر) بالالف والنون الزائنتين ، مثل « غفران » . وهنا سألنى : من أنت ؟

لم يكن الدرس فى الأدب الجاهلى ولكنى كنت أحضره بانتظام ، ولعل ذلك لانه كان يقابل فى جدول السنة الأولى فراغاً انتهزت فرصته لأحضر درساً للرجل الذى كان اسمه يترامى الينا من بعيد ونحن لا نزال فى الثانويات مذ نارت مشكلة كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وأخذناها فى سن الصبوة المتحفزة على أنها قضية حرية الراى .

بعد هذا الدرس الأول كان طه حسين اذا عز أمر على طلبية تلك السنة نادى : فليقل طالب السنة الأولى . وبعد هذه السنة كان تدريسه لنا « الأدب الجاهلى » وكان موضوع « زهير بن أبى سلمى » الذى ذكرته هو أول تكليف كلفنى فيه يبحث مقدمه له وللطلبة ، ثم كان آخر بحث كلفنى القيام به عامه ذاك .

ثم دخلت السنة الدراسة الثالثة وكانت « النصوص العربية » فى ذلك العام مختارة من ديوان أبى تمام . وأبو تمام عسر الفهم ، بعيد غور المعانى ، وكان هم طه حسين ان يخرج بنا من قراءة ما كنا نقرأه منه الى نتائج حددها لنفسه مسبقاً فكان يرجو أن يستدرجنا الى تقريرها معه . وكانت دروس النصوص عنده لا تقع موقعها المتعارف عليه عند طلاب اللغات من الشرح والتقد المبني على التدقيق الجمالى ، والحكم القائم على النظر العقلى فى تاريخ النص وقدر ترجمته عن ظروف قوله ، وانما كانت قراءة تؤديها نحن الطلبة ويقف طه حسين منها عند البيت الذى اختاره شاهداً على الحكم الذى خرج اليه من قبل فيسند به هذا الحكم فى محاولة للتدليل على صحة استخراجاه .

وفي أول مناسبة من هذه المناسبات اعترضت على تفسيره بينما لابي تمام ، وقدمت تفسيره كما فهمته ، والغريب في هذا الرجل أنه كان سريع التراجع حتى في أخطر القضايا التي كان ينشبت بها ، فوافقني على ما قدمته من تفسير للبيت ، ودعاني الى المضي في شرح ما تلاه من أبيات القصيدة التي كنا نقرأها . وانتهى الدرس وأنا أشرح القصيدة ، فالتقى على عيب نقل أخرى من الديوان للدرس المقبل ، وفي الدرس التالي كلفني بتقديم القصيدة الى الطلبة زملائي وشرحها لهم فصرت أصنع له ذلك حتى أخرج من كلية الآداب في العام نفسه .

في هذا العام (1931 — 1932) كلفني طه حسين ببحث حول « الجمال الفني فى الآيات التي نزلت في غزوة بدر » . وكان تكليفا استثنائيا بالقياس الى الموضوعات التي كان طه حسين يهتم بها . ولكننا في ذلك العام كنا مكلفين — استثناء أيضا — بحفظ بعض سور القرآن عن ظهر قلب ، وبحفظ معلقتين ، على أن نؤدى في المحفوظ امتحانا شفويا بعد عطة نصف السنة .

وكان أحمد أمين و ابراهيم مصطفى قد بدأ يلاحظان أن محصول طلبة قسم اللغة العربية بالكلية لا يرتقى الى مستوى الكفاية التي تحقق لصاحبها القدرة المناسبة للنهوض بالدراسات التخصصية العربية ، وأقنعا بهذا طه حسين ، واختاروا الحل هذا .

ولم أكن غريبا على القرآن الكريم ، فلقد كنت حفظته « بالكتاب » ، وسرت في مرحلة أعادته شوطا عند ما أخرجت منه وألحقت بالتعليم الابتدائي . لكنى لا أعرف كيف ضقت بهذا التكليف الجديد الذى سيضعنى أمام المتحن موضعى أمام « العريف » في « كتاب » الامس . فأخبرت أسانذتى جميعا بأنى لن أحضر هذا الامتحان ، ولن أضع نفسى هذا الموضوع ، وانتهى هذا الى طه حسين انتهائه الى غيره فأصر على أن أودى الامتحان وأصررت على الرفض ، وطلبت تحويلى من قسم اللغة العربية الى قسم الفلسفة ، ورفض طه حسين قائلا : اننى أعرف انك تصلح فيلسوفا ، ولكنك كذلك تصلح كاتباً . وبقيت في قسم اللغة العربية ولم أؤد الامتحان .

قد يكون اساء فهم نفرتى القيام هذا المقام من المتحنين . ولست أدرى أكان يظن يوم كلفنى بالكتابة عن « الجمال الفني في الآيات التي نزلت في غزوة بدر » ان سأقوم من هذا الموضوع مقاما يرضى نزعاته المعروفة ؟ لا أستطيع القطع في هذا بيقين أطمئن اليه فهذه المعانى لم تقع في خاطرى بوقتها ، وانما أيقظتها في ذهنى مراجعتى سيرة الرجل يوم أخذت أفرغ للنظر في الماضى يساند بعضه بعضا .

على كل حال قمت بالبحث وجعلته في قسمين :

الاول — في فلسفة الجمال ، والقوى المدركة والمفجرة له في النفس الانسانية .

والثانى — موسيقى الآيات ، رابطا بين الدلالات الصوتية للحروف في تكوينها الكلمة وبين معنى الكلمة ، ثم بين الدلالات الصوتية المتكاملة في الكلمة وبين سواها في تكوين كل آية وفي انسيابات الموسيقى الصوتية الناشئة عن هذا المركب اللحنى ، وانسجاماتها بحيث تترجم عن المعنى الشامل للآية في جو من الوقار العذب والحجب الى النفس . وكان بحثى تفصيلى ينصب على وظيفة الحروف في تشكيل معنى الكلمة ، ووظيفة الكلمات في تشكيل معنى الجملة وإيقاعها في النفوس بعد الاسماع .

والقيت البحث في ثلاث محاضرات لم تكن المحاضرة تزيد على نصف الساعة لان طه

حسين كان لا يدخل الدرس قبل انصرام عشرين دقيقة من بدئه ، وينصرف منه قبل عشر دقائق من انتهائه . وقد تحدث بعدها فائتي على وبالغ في الثناء حتى لقد أثار حفيظة بعض الحضور . رفع طه حسين البحث الى السماء في كلمات منمقة ، وعبارات مقسمة ، وغلا حتى لقد أصفر عقله الذي كان يحاول أن ينسامى به الى فهم فلسفتي للجمال فكان لا يكاد يمسه الا كما يمسي السحاب . . وكان الموقف من الجد ، وكان هو من حيث التعبير عن حقيقة وضعه بحيث كان الحضور مبهورين بما أنزل الرجل نفسه وفكره .

وكانما شعر بهذا فاذا به يعقب على خطبته بقوله : ولكن

وتنفس الحضور الصعداء وانظروا النقد الذي تتقدمه « لكن » هذه ، وانظرت معهم ، ولكن لم يات شيء . ولقيني عبد العزيز أحمد بعد المحاضرة بيومين ، فسار معي يقول :

ان الدكتور يقول : بحث البهيتي رائع وعظيم ، ولكني أخذ عليه أنه قد أطلع كثيرا ، وقرأ كثيرا ، وأصاب من النقد الحديث النصيب الواسع ، ثم راح يطبق هذا كله على نص كتب قبل أربعة عشر قرنا لا علاقة لاصحابه بما يعرفه هو الآن من تقدم في القرن العشرين .

فقلت له : بلغ الدكتور أن النقد الحديث ، واتساع آفاته لا يغير من قيمة النص شيئا ، وانما يزيد من البصر بجماله ان كان جميلا ، ويضع نقائصه تحت المجهر ان كانت له نقائص ، وهو يضع الناقد العارف في الموقع المكشوف المتعرض ان هو أخطأ في الحكم على النص ، أو بالغ فيه . والجمال يكشف دائما عن نفسه للخير ويخفي نفسه عن غير البصير . وكان جديرا بالدكتور أن يلفتني الى ما يظن أني لم أوفق فيه من تفاصيل البحث ان كان عنده شيء ، بدلا من هذه التعميمات التي لا تفيد .

ولست أشك في أن عبد العزيز أحمد قد حمل اليه ما قلته فلقد كان الرجل من خلصائه وكان بطييمة علاقته معه مكلفا بحمل ردى اليه . وقد التقينا بعدها انا وطه حسين فلم يشر الى هذا الموضوع أى اشارة . ولم يمض بعد ذلك الا أيام قلائل حتى أخرج طه حسين من الجامعة ، وعقدنا خلا في مطعم شهر اذ ذاك لتكريمه ، وكان في واقعه احتجاجا نرفعه في وجه حكومة اسماعيل صدقي الاستبدادية التي كنا نحسب الوسائل لرفع الصوت فسى وجهها ووجدناها سائحة في هذه المناسبة .

ولقد علمت الايام طه حسين فن استغلال مثل هذه الظروف لصرف مصلحتها الى نفسه ، بالدعاية لعلمه ، وكنت أنا قد أخرجت قضية طه حسين الى قضية عامة تنطلق الى أن اخراج الاستاذ الجامعي من جامته انما هو اعتداء على استقلال الجامعة ، وخنق للشعلة الواحدة التي لا تزال مرفوعة في دياجير الظلام التي لف فيها مصر حكم اسماعيل صدقي . وجرت الدعاية كلها للقضية هذا المجرى وتلقف الشعار طه حسين يعكس به الضوء على نفسه ، ويجعلها الشعار لحركة الطلبة . وقد خطبت في ذلك الحفل ، وخطبت فيه طالبة كان طه حسين قد وضعها في قسم اللغة العربية من غير مؤهل لدخول كلية الاداب فلم تكن قد أتت دراستها في المدرسة الامريكية التي كانت لا تدرس فيها اللغة العربية فرعا أصيلا من فروع المنهج . وقد أعانها طه حسين بقدر استطاعته ، ودفع بها الى اول الصفوف فمن المفارقات مثلا انها خرجت بترتيب الاولى في قسم اللغة العربية في سنة التحاقها بالكلية على حين انها لم تحصل على أعلى درجة في اللغة الانجليزية التي كانت لغة دراستها في المدرسة الثانوية ، وجاءت دون درجات غيرها من زميلاتها اللاتي تخرجن في الثانويات المصرية . ثم تابع طه حسين هذا الدفع المخطط الى أن حصلت على الدكتوراة في رسالة أملاها مارسيه

في محاضراته نصا فرنسيا في باريس وسمعتها جميعا ، وقد بدأ العام الدراسي « بالنحو » فلما لحقت بالكوليج دي فرانسى ومعها توصية طه حسين لمارسية بدل هذا موضوع محاضراته التى كان قد بدأ بها العام الدراسي من موضوع في « النحو » الى « دور المرأة في الف ليلة وليلة » . وكانت الإطالبة التى كان ويليام مارسية لا يدعوها الا « بمدام » تكتب المحاضرة ، وتحمل آخر الدرس المراجع التى جاء بها مارسية ، ورد الى صفحاتها ، وأشار الى أماكن شواهد منها لتتم الطالبة كتابة ما سقط منها في الدرس ثم تعود بها في الدرس التالى لتحمل غيرها وتكتب الجديد . وقد حضرت بعد ذلك في مصر مناقشة رسائلها في كلية الآداب ، وكان طه حسين يرأسها ، ويحاضر الاساتذة المشاركين له في المناقشة حتى لقد مد يده الى الجزازات التى كان ابراهيم مصطفى رحمه الله يناقشها منها فأخذها من أمامه ، كما أسكت العبادى ، فكتبت خلال المناقشة اسمع ما ظل مارسية عاما دراسيا يليق في الكوليج دي فرانس .

خطبت هذه الطالبة خطبة لست أشك في أن طه حسين قد أطلع عليها قبل أن تلقى ، وكانت تكرر فيها خطاب « بيا عميدى » ، وأظن « يا عميدى » هذه كانت رأس الخط الذى انتهى الى اللقب الصحفى « عميد الادب العربى » بعد أن حرم اسماعيل صدقى على الصحف قرن اسمه بلقب « عميد كلية الآداب » وسقط عنه المنصب بخروجه منه وتعيين غيره فيه .

وقام طه حسين فخطب فقال فيما قال :

« ينهوننا بأننا لا نحترم القرآن ولو قرأوا بحثا كتبه الطالب البهيتى لعرفوا كم نحن نجل القرآن ونقدسه ونحترمه » .

وعجبت لان صدى رسالته التى كان حملها الى عبد العزيز أحمد كان لا يزال جديدا يتردد في أذنى . يستنجد ببحث كان قد اعتبره غير مثلائم زمنيا مع القرآن ليبرىء نفسه من تهمة بجرمة صاحبه من أول كتاب نشره يقدم فيه محاضراته الجامية .

والواقع التاريخى لا يسند القول باخراجه من الكلية في سنة 1932 لانه كان يلقي بين الطلبة ببذور الشك والتهديم لتاريخهم ودينهم كما قال وأشاع . اذ أن الكتاب الذى هوجم وحوكم من أجله - وهو « في الشعر الجاهلى » ، وخرج فيه خروجا ارتجاليا الى قضايا خطيرة ، هذا الكتاب لم يصبه بسوء ، ولم يخرج من الجامعة . وقد ظلت نسخته المعدلة التى نشرت تحت اسم « في الادب الجاهلى » تجرى في السوق ، وتوزع على الطلبة ، وينخذها طه حسين معيارا لتقديمهم في الامتحان وتأخيرهم ، ظلت تعيش بنفسها وبمحتوى الكتاب الذى ولدها في السوق لم يصب صاحبها بكلم ، ولم يخرج من أجلها من الجامعة ست سنوات كاملة . فالرجل من هذه الناحية الفكرية لم يكن قد دخل على حياته جديد ، يزيد على ما جاء منه أولا . والملك فؤاد الذى لم يحرك كتابه في جسده شعرة سنة 1926 ، وهو الذى كان واسطته في التغلب على العقبات التى كانت تعترض سفره الى أوروبا - كما قال طه حسين في مذكراته ، وكما اعترف به في خطبته بين يدي ابنه فاروق سنة 1951 عند افتتاح معهد الصحراء - كان لا يزال هو الملك الذى كان ينظر الى الجامعة باعتبارها ثرة من ثمار غرسه ، ولم يجد في طه حسين خلال ست سنوات خطرا على جامعتة ، فؤاد ما كان يمكن أن يسمح بطرد رجله لسبب ينبع من وقائع تتصل بفكر طه حسين .

وقد كانت الإنباء تأتى البنا عن أسباب اخراجه من الجامعة فتضع الامور وضعا مفايرا تماما لما كان الرجل يدعو به لنفسه ، وهمه التفتية على الاسباب الحقيقية لاخراجه .

وكانت هذه الأنباء تدور كلها حول أن طه حسين كان منذ سنة 1929 قد دخل تجربة جديدة راحت أنبأؤها تتراعى الى القصر ، وتحركت بعنف أيام زيارة الملك عبد العزيز آل سعود للجامعة في ذلك العام في صحبة الملك فؤاد فتنازل الملك فؤاد عن هذه الصنيعة الصغيرة من صنائعه .

وقد حاول بعض أصحابه أن يكسو هذه الاخبار بشياب تنكر حقيقتها فنسب اخراج طه حسين من الجامعة الى أنه سمح للفتيات بدخول الجامعة : وهو هراء محض فلم يكن فؤاد بصاحب العين التي تغفل عن ديبب الفتاة الى الجامعة قبل ذلك بثلاث سنوات ، وما كان يمكن للجامعة أن تسمح للفتيات بدخولها الا بعد أن ترجع الى الملك الذي أنشأها أهلية ثم ضمها الى حماية الحكومة رسمية تسهر عليها الدولة . ثم ان طه حسين كان أصغر من أن يقم هذه التجربة على رؤسائه فضلا عن الملك فؤاد . كان اخراج طه حسين من الجامعة لدخوله على تلك التجربة ولكنه كما قلت كان يحاول التغطية عليها بصرف حقيقتها الى صورة يصنعها لنفسه ويصنعها معه أتباعه الذين خلقهم خلقا من التراب المتعفن حول كلية الآداب والجامعة

وقد أعاده الوفد الى كلية الآداب سنة 1935 حين جاء الى الحكم بعد أن عمل في صحيفته ((كوكب الشرق)) يعلى اسم الحزب الذى حاربه أجيرا لخصومه ، هاجمه هو وزعيمه بأبشع ما يهاجم صاحب اللسان القذر الناس والقيم ، ولم يعترض فؤاد عودته .

فعاد يلحس ما بصقه ويرفع الاسم الذى كان بالامس يعمل ضد صاحبه سادرا لحساب خصومه من أصحاب السلطان والمصلحة في هدم الوفد . والواقع أن طه حسين لم يكد يعمل مع الوفد حتى راح يصنع من هذه الانتكاسة قاعدة جديدة يرتكز عليها في مسانדתه في العمل الذى كان قد كرس حياته لادائه ، وتقدم به العمل فيه مستندا على حماية الحزب الذى كان من قبل ذلك يحارب من أجله الوفد .

ولما صارت له شعبية تسانده ، وتنازل خصومه السابقون عن كل ما قدم أملا في كسبه لسانا عاملا يمسح بيده ما كان بالامس قد ألقى به من قاذورات في وجوههم ، فعرضوا لمن حقيقته أمام العميون ما كان حتى أمس يوم ابوائه الى كنفهم مخفيا وراء الظاهر الخداع ، راح يستقل مكانه الجديد في توسيع ضرباته للجامعة كلها .

ثم لم يلبث أن برع في خداعهم عن طريق تملقهم وتوريطهم ، والمبالغة في الثناء عليهم بعد الزرابة بهم . وصار يخطب للنحاس باشا بأنه ((الزعيم الذى يصدر عنه الخير كما يصدر النور عن الشمس ، وكما يفوح العبير عن الزهر طبعاً من غير تكلف)) . ولم يكذب هذه المرة فقد كان النحاس خيرا وبارا بأمنه .

وقد عاد الى هذه المعانى نفسها في الحديث عن عبد الناصر أخذ يده بعد السقوط ، وقال بمثلها وكثر منها لفاروق يوم اشترك مع الوفد جانبا ثمرة الانتقال الى صفوفه في عملية انقلاب مفاجئة على الحزب الذى بناه . ذلك أنه كان يعلم بحكم السابقة المتكررة أن الوفد غير باق ، أما القصر فهو المعتمد الثابت ، فقال لفاروق في خطبته بافتتاح معهد الصحراء ما قاله من أنه المثل الأعلى لشعبه في الاخلاق ، وذكر الشباب الذى كان طفلا يوم أخرجه اسماعيل صدقى من الجامعة لاسباب لا شك في أن فاروقا كان ينكرها لو عرفها ، فراح يقول له : ((أنا يا مولاي فرس أبيض طيب الله ثراه ونضر وجهه ، وثمره نعمته ، أرسلنى في بعثتى)) .

كان يذكر فاروقا بأنه معه ولو ذهب الوفد كما اعتاد أن يذهب من قبل ذلك ، ليرسى قدميه — وهو في الوزارة التي قذفه اليها الوفد — فوق أرضية ثابتة من رضا الملك وما كان يدري انه ذاهب بعد قليل . وليس يدري أحد ماذا كان هذا الرجل يفعله بين يدى فاروق في الخفاء اذا كان هذا هو قدر ما كان يفعله في العلن . ومن عجب ان هذا المتلون باكثر مما تتلون الحرياء قد قربه عبد الناصر مع انه كان يراه وهو يحمل على ظهره تلك « الخطبة المشهورة » التي كانت لا تزال تدوى اذناه بطنينها ، يوم راح يطلق يده في قيادة الحياة الفكرية ، ويرفعه بيديه من الهوة الفاعرة التي كنت قد قذفت به فيها في سنة 1951 ، بعد أن طهرت الجامعة من آرائه قبل ذلك في الاربعة السنين السابقة التي درست فيها « تاريخ الأدب الجاهلي » ، ثم كشفته عاريا أمام الاعين في معركتي معه في ذلك العام نفسه . ولولا موقف كمال الدين حسين من طه حسين لانتهى الى أقدم من ذلك .

فأعانه عبد الناصر على تفتيت الجامعة الاولى في مصر وعلى تبيد ما كان قد أفلتت من كفاياتها قبل ذلك باثر من عبث الرجل بمقدرات الجامعات عبثا مرسوما ، ثابتا ، ماضيا عليه في اصرار ، وتخطيط ، في طريق انفتح دائما بين يديه ببراعته في ركوبه اكتاف الاقوياء الذين كان دائما يتلمسهم ، ويسدد اليهم خطاه المرتكزة على كفتى سكرتيره : يطلبهم في دورهم وفي مكائتهم ، وفي حفلاتهم ، ويهدد للانتقال اليهم عند ما تهب نسمة تشير الى اقترابهم من السلطان النافع له ليسيير على طيبته الى هدفه الذي لم يتبدل في جوهره قط وأن يتبدل طريق وصوله اليه . كان أمين الخولى يقول لى انه قادر على النفاذ من الجدران (وقد كان يفعل ذلك في صفاقة لا يعادلها قوة الا استماتته في تحقيق بلوغ أهدافه . كان يتصل بطارده من الكلية حلمى عيسى ليحول بعثاتي الى غير قسم اللغة العربية ، أو ليمنع الفاشلين في البعثات من العودة ، سدا لطريقى اليها) .

وقد كانت هذه الجامعة قد انتهت الى حال من التبلور — على الرغم مما دس فيها من مزيفاته من المدرسين والاساتذة الذين كان يصنعهم بعد أن يستخرجهم من أسفل درجات سلم الخريجين منها أو من الدخلاء الطميين عليها من خارجها ، ثم يسلمهم بالدكتوراة في أبحاث يندى لها جبين العلم ، ويخزى بها وجه الجامعة ، وبين يدى الان أسماء ثمانية وعشرين منهم كتلتهم من المتخلفين في اللسانس . ونحو خمسة منهم تسلمهم طه حسين من أسفل درجات السلم ، أو دخلوا الكلية في عهد الإجداب الذي كانت سياسة الرجل للكلية فيه ، تفضى على قتل الكفايات فيها عن طريق الحرب المباشرة الخبيثة الخفية لهم ، أو تحطيم عزائمهم باهمالهم بعد التخرج ، والاستنجاد في ملاء الاماكن الخالية أو المخلوقة بالتخلفين ، والمرقن من وظائف « صبية المكتبات » وكتبة الجزازات تسلا الى العمل المتواضع أولا بالكلية ، ثم الوثوب بهم باسباغ الدكتوراة الى مراكز التدريس ، مع ترك الاكفاء القادرين ، أو محاربتهم في وظائفهم ان كانوا قد بلغوها على مضض منه في فترة من فترات ضعفه المؤقت . واني لاذكر بهذه المناسبة من هذا الفريق الاخير ابراهيم أمين الشواربى ، وعبد الحميد الدواخلى ومحمد صبيح ، ومحمود الخضرى : قام في وجه من دخل منهم الى الكلية أو حال بينهم وبين دخولها .

وكان المزيغون يهاون بالرسائل المسروقة قواعدها ودعائها من رسائل بذل فيها اصحابها دمهم وعرقهم أو أخذت من كتب مستشرق ، أو من محاضراته نصا من غير حرص حتى على مداراة الاصل بشيء من العمل الذاتى ، لان القدرة على هذا القدر الطفيف من العمل كانت معدومة فيهم ، وفي أستاذهم الصانع لهم .

ومن هذه رسالة عن « ناصر خسرو » أشرت اليها قبلا .

ورسالة ثانية أهديت عليها صاحبها « الدكتوراة » في مناقشة في مصر وهي مجموعة المحاضرات التي ألقاها ويليام مارسيه في الكوليج دي فرانسى عن « دور المرأة ألف ليلة وليلة » بناء على طلب طه حسين .

ولم يكن المستشرقون يجدون في لقاء الناس بهذا حرجا ، ولا خلا . ولم يكن طه حسين يكف نفسه أو يتردد في حماية من أخذ على عاتقه بناءهم بتزييف الألقاب لهم .

والواقع الذى يصرح اليوم عن وجهه في الكتاب الذى كتبه الاستاذ أنور الجندى عن « طه حسين » ان الجماعة كانت تعتبره واحدا منها ، وأن ما كان يعمل في تزييف الجامعات انما كان عملا يتضاضر فيه الشركاء ، وينفذونه لا على أساس انه مجاملة لرجل يخدم أهدافهم ، ولكن لانه تكتيك العمل المشترك المؤدى الى تحقيق الهدف الواحد ، وهو عرقلة النمو الحقيقى لجامعاتنا للحيلولة بيننا وبين النهضة التى ظلت فلاسفة أوروبا تنتظر أن تؤتى ثمارها بعد أقل من قرن تكون « المادية الاوروبية » فيه قد انهارت . تلك المادية العرجاء التى لا مثل لها ، فهى لا تحمل في طبيعتها أسباب البقاء .

ثم قامت رسائل أخرى بوسائل تفاير بعض المغايرة هذه الاساليب الاستشراقية ، والمثل لها واحد أقدمه فقد « أهدى طه حسين » ، — على حد تعبيره « الدكتوراة مع درجة الشرف الاولى » الى ولى من أوليائه أنسى عنده الطاعة التى يقدمها الطامحون للقادرين على صناعتهم عند العجز اذا زادت طموحاتهم عن كفايتهم . قدمها له في رسالة اشتمت اصول تكوينها من رسالتى في الماجستير « أبو تمام الطائى — حياته وحياة شعره » ، ومن موضوعى الذى أشرت اليه سابقا « عن الجمال الفنى في الآيات التى نزلت في غزوة بدر » من القسم الثانى الذى وضعته تحت عنوان : « الموسيقى في الآيات » . ونقمة طه حسين على * ثم من أحاديث عن « الطبع » في الشعر وانه لا يمكن أن يكون باية حال بريفا من « الصنعة » ، لكنها الصنعة التى يطويها الطبع .

أما القسم الذى استنجد فيه هذا الولي بكتابى عن أبى تمام فقد قدمه له طه حسين الذى كان قد أخذ الكتاب منى باسم « طبعه على نفقة الجامعة ، وتبادله مع الجامعات تمهيدا لارسالى الى أوروبا » ، فحسبه عنده ثمانى سنوات لا يطبعه ولا يبرده ، ولا يتبع لاحمد أمين طبعه في لجنته ، ثم مضى خلال خمس سنوات عاملا العمل المصمم على الحيلولة بينى وبين البعثة ، ويتهرب من قراءة ما كنت أنممه من رسالتى للدكتوراة التى كان قد نقل الإشراف عليها الى نفسه بعد الماجستير ، فلا هو يقرأ ما أكتبه ، ولا هو يسمح لغيره برد الإشراف اليه .

ولقيني « فريد » سكرتيره مرة في الترام ، وسألته مجاملة : ماذا يصنع الدكتور هذه الايام ؟ ورد على : « يعد كتابا على أبى تمام » . فعرفت مصير رسالتى ، فلم أوفر شيئا للرجل الذى سينتحل عملى ما تركت صديقا او مجلسا جلسته الى واحد أو جمع من الناس الا قلت له : ان طه حسين اخذ رسالتى وعطلها عن الطبع هذه الحقبة الطويلة لينتقلها بعد أن ظن أن ذكراها قد غابت عن الناس . وبلغ طه حسين ما أقوله من ألف مصدر ، فما أكثر ما كانت عيونهم ، فكف عن اخراج كتاب على « أبى تمام » واتجه الى نقل « مع المتنبي » عن بلاشير ، وليس بين الشركاء حساب ، وكله في خدمة الاستشراق .

قبل ذلك كان طه حسين يوزع من « أبو تمام » ما راقه ، ويحرص منه على حبس ما انتوى اذاعته باسمه . وكتاب « أبو تمام » غنى بالأفكار قد فتق الكثير من الجديد في دراسة الشعر

المربى وفي النقد ، وترامت بى فيه التحقيقات الى أشواط بعاد ومجاهل من التاريخ لم تطرق ، وأساليب من التحقيق لم تسبق . وطه حسين يأخذ الحبة فيصورها على طريقة الحواة قبة . ولذلك لم يكن يجد باسا في توزيع فنون مما كان بين يديه في الكتاب مما أنس من نفسه العجز عن السير فيها لسطحته المشهورة وقد كان يعترف بها ، وينسب اليها عجزه عن التحليق مع الفلاسفة في فلسفتهم . فلم يكن يضيره أن يعطى لمصنوعيه من الكتاب شيئا ، أو يدعى ترشيدهم ببعض ما فيه انتحالا لزي الأستاذ المشرف القادر على الخلق . وفي صبح يوم كنت أدخل الكلية مع هذا الذي أشرت اليه قبلا وإذا نحن باعلان على السبورة الموضوع في مدخل الكلية على هذه الصورة :

« بحث لم يطرق من قبل في العربية » للطالب فلان .

وكانت الغرفة التي سيلقى فيها هذا الطالب بحثه الفاتح ، للعمل غير المسبوق ، غرفة درس طه حسين ، والساعة من ساعات محاضراته النظامية . وطار صاحبي الى عنقي يطلب منى أن أحضر معه القاء هذا البحث ، فلقد كان أيامها يتلمس كل شيء يمكن أن يفيد منه في رسالته للدكتوراة التي كان يمشى فيها على ما أعرف من خطواته مشى السلحفاة متعترا . على أن ما لفتنى يومها في هذه القضية لم يكن هذا الذي لفت صاحبي وإنما كان شيئا آخر : ذلك أنا ونحن طلبة ومعيدون ننهض بالقاء الدروس في الكلية ، وكثيرا ما كلفنا طه بأبحاث ألقينا بها في درسه ، فلم يفكر أبدا في السماح لاحد بان تقدم الكلية بجلالة قدرها وقدر الاستاذ اعلانا عن بحث لطالب في هذه الصياغة الاستثنائية . كان من الطلبة من حضر بحثى عن « الجمال الفنى » الذي أشرت اليه ، وكان بين الحضور عدد من مدرسي الثانويات فرض عليهم حضور دروس طه حسين تجديدا لمناهجهم في العمل كما أرادوه هو . ولكن الطلبة كانوا يتسامعون بموضوع البحث فيما بينهم ، وكانوا يظنون أنى لا بد أن أقول شيئا ، ثم انهم كانوا ينتظرون أن سيكون اللقاء بينى وبين طه حسين حارا كما اعتادوه دائما أو كما ترمى اليهم من زملائي . اما أن يسمح طه حسين باعلان عن بحث بهذه الكيفية فكان شيئا خارجا على جفخة طه حسين ، وعلى حرصه على استبقاء سمعته التي حصلها عن طريق الاعلان والدعاية التي كان يدعوها لنفسه ويساعده في النهوض بعينها أتباعه وصنائعه وخصومه جميعا في حماقة لولاها ما وجد طه حسين على مسرح الفكر أبدا .

لذلك لم أمتنع عن الذهاب لسماع البحث « الذى لم يطرق في العربية » ولو أنى كنت أعرف أن صاحبه أفرغ من طبل كبير التجويف .

وسمعت الطالب يلقى « ببحثه الذى لم يطرق » فاذا به محاولة متعثرة جدا في تقديم قصيدة للفرزدق أو لجريير — فقد مضى الزمن بالحادث الغريب بعيدا إذ أنه كان في سنة 1940 — وكان هذا العمل يجرى مترنحا في الخطوط التي جرى عليها بحثى عن « موسيقى الآيات التي نزلت في غزوة بدر » . في سنة 1932 أى قبل ذلك بثمانى سنوات فكان تكليفا للطالب بحمل ما يعجزه .

وسطعت الفكرة في ذهنى مرة واحدة حين ذكرت ذلك الماضى البعيد . فقد كان طه حسين إذ ذاك يحاصرنى ، وكان يقوم بعملية نقل الملكية أبحاثى الى نفسه والى مصنوعيه ، فيحبس « أبو تمام الطائى — حياته وحياة شعره » عن الطبع ، ويحاول اغتياله لنفسه ولغيره . وإذا كانت نسخة « أبو تمام » كانت بين يديه يعطى منها بعد بصر وتقليب فان بحثى عن « الموسيقى في الآيات » لم يكن بين يديه . فاذا كان قد عزم على أن ينزع عنى هذا العمل الذى كان يظهر

بانكاره على في معالجتي لنص معجز فانه في ترديه في الخصومة قد حمله النزق على نقله الى بحث حول « الموسيقى » في شعر لشاعر أموى شتام — ، ثم حول ملكيته الى طالب رقيق الحال عقليا . ولما كان نقل خطوط الفكرة وتصورها في البحث عن ذاكرته ، فان الاستاذ كان عاجزا تماما عن تحقيق نقل القدر الكافي منها الى تلميذه حتى يقارب الإتقان فيه . وقد كان البحث يومها صعب الوصول الى ذهن الرجل المسطح فقال لى في تعقيبه : انه كان يسمى الى أن يرتفع الى فلسفتى في موضوعى فكان كمن يحاول الارتقاء الى السحاب . وطه حسين كان أقرب الى الارض مما يظنه هو . ولذلك فانه لم يستطع توضيح القضية له اعتمادا على ذاكرته فخرج هزيلا . وقلت هذا لصاحبى فطلب البحث ليطلع عليه فقدمته اليه في حمية الغاضب فضمه الى ما كان قد أخذه من « أبو تمام » وكتابى « أبو تمام الطائى » يتالف من ستة أبواب :

الباب الاول — طيء ونسب أبى تمام فيها .

وفيه أعالج القاعدة التى انبنى عليها نسب أبى تمام من قبيلته في ماضيها السابق للإسلام وفيما جاء بعده حتى عهد أبى تمام .

والباب الثانى — شخصية أبى تمام وأسرته في طيء ، وفيه أبدأ بالادلة التاريخية القاطعة ما أثارته عبارة خرمت من عبارات ابن خلكان نقلها عن الأمدى حول نسبة أبى تمام في طيء ، واستغلها « جيب » المستشرق الإنجليزي ليوحى بان أبى تمام من أصل يونانى . وتلقفها طه حسين لينقل التلويح تصريحاً وليرتب عليها أن فن أبى تمام الشعرى يونانى يونانى ما في ذاك كلام .

والباب الثالث — حياة أبى تمام وحياة شعره — وفيه أتابع نشأة أبى تمام ونشأة شعره مجتمعين ، ونموهما معا باثر من العوامل المركبة التى كانت تؤلف حياة الدولة الإسلامية اذ ذاك ، وتدرج فيها أقدار الرجال من قادتها وتتعلق بها أقدارهم ومصائرهم ، والاحداث التى كانت تكون في مجموعها التاريخ الإسلامى يومئذ ، وشكلت « الدوامه » المرغية التى كانت تدور بكل شىء ، وتكيف بقوتها وبفعلها حياة أبى تمام ورجال عصره ، وتنعكس في شعره .

وقد خلصت من تاريخ العصر ومن التراجم التى تركها لنا التاريخ لأبى تمام ، ومن شعره عناصر ثقافته التى تلقاها في مصر خاصة ، مددلا على كل قضية قدمتها من واقع شعر أبى تمام : القرآن ، والتاريخ ، والحديث ، والادب ، والفلسفة وخاصة ما اتصل منها بالمقائديت ، والفلك والنحو .

وفي هذا الباب تابعت التطورات الرئيسية التى تعرض لها شعر أبى تمام تحت تأثير هذه العوامل المعقدة ، ومجارة فنه للتيار الذى كانت تؤلفه هذه المؤثرات .

وكان أعنف وأقسى ما بذلته من الجهود في خدمة أبى تمام قائما في هذا الباب لانى رتبت فيه شعره على حسب أزمنة قوله ، عن طريق التقصى الشامل لاحداث ذلك العصر ، ولحياة الرجال الذين اتصلت بهم حياة أبى تمام ، وكان على أن أستنصر في ذهنى وأنا أتحرى وجوه التناسب بين القصيدة التى تترجم من حيث الزمن بين طرفى حياة أبى تمام ، في كل شعر أبى تمام ، وكنت لكثرة قراءته قد كدت أحفظه كله عن ظهر قلب . فكان جهدا مضنيا ، فقد كنت أستأنس فيه بالحادث العام ، والخاص ، وبالزمان ، وبالمكان ، بل وبالظاهرة الطبيعية التى حدث أن اقترنت بزمان قول القصيدة ، وذلك حتى أضع القصيدة في موضعها من تاريخه .

والباب الخامس — القدماء والمحدثون . وفيه تابعت حياة الشعر العربى في خصائصه

وملامحه الكبرى محبولا على أكتاف شعرائه من الجاهلية حتى عصر أبي تمام ، مبينا في ذلك اتجاهاته وانقسامات الشعراء بين متسهلين ومعسرين ، بين قائلين للشعر في طواعة تدفعها فطرة قوية ، ومتمهلين يراجعون شعرهم ، ويحذفون ويثبتون . ومن كان منهم من أصحاب المعاني ، ومن كان منهم من أصحاب الإلفاظ .

ومن هناك انطلقت الى نشأة الشعر الجديد ، وكيف جاء استجابة لواتع التكوين البشري للامة العربية بعد أن خالطتها نفوس جديدة راحت تعبر عن نفسها بلغة دينها ، وبعد أن طلعت على صنوف من الحضارات في أرضها التي استردتها ، أو في الأرض التي فتحتها مما لم يكن من أوطانها قبلا .

وفي هذا الباب قسمت الشعر الى عصور ثلاثة :

1 - العصر القديم فبينت حدوده عند العلماء ، وتحدثت عن نهج القصيدة فيه ، وانقسامها ، وكيف كانوا يملأون هذه الأقسام . كما تحدثت عن شعرائه وكيف انقسموا الى :

أ - أصحاب المعاني وعلى رأسهم امرؤ القيس .

ب - وأصحاب اللفظ ، وهم أصحاب النظر فيه ، وتقليبه ، ونفى رديئه ، وإبقاء جيده ، والتمهل في اظهار شعرهم ، وعلى رأسهم زهير واستاذاه : أوس بن حجر وطفيل الغنوي ، ومن بعد زهير تلميذه الحطيئة ، وهي مدرسة الصنعة .

ثم بينت حدود هذه الصنعة حتى يتبين على ضوءها من بعد ذلك فرق ما بينها وبين صناعة المحدثين .

2 - عصر الانتقال - وأثر الاسلام ، واتساع الفتوح ، وانبعثت المثل الاجتماعية الاسلامية ، وما هز ذلك كله من النفس العربية فبعثها الى التماس التعبير الشعري مترجما عن هذا التبدل الذي طرأ عليها . وقلت ان هذا العصر كان عصر استقرار النفوذ العربي في عهد الخلفاء الاول ، ولكنه كان عهد كفاح من نوع ذلك الكفاح العملي الذي يهون الى جانبه القول ، وانه كان لذلك عصر اختزان النفسى للأحداث ، يليه عصر القول والفيض .

ولقد جاء هذا العصر الجديد بالفعل بعد أن تحولت الخلافة الى ملك فازدهر نوعان من الشعر : الغزل والسياسة . وبذلك ظهر الشعر الجديد ، وبدأت حوله الانقسامات بين مناصرين له ومخاصمين .

وقلت : « ولكن الحياة لم تلبث أن استقرت . . فاخذ الناس يرون في الشعر الجديد متنفسا وتصويرا لما يجري في نفوسهم . . وعلى ذلك فالتيار النفسى الذى كان يوجه الشعر يومئذ كان مستقيم المجرى . . يكمل ما كان منه قبل الاسلام تكملة الحلقات لسلسلة التقدم الطبيعية في الحياة . . » (ص 176 - 177) .

3 - عصر المحدثين - فتحدثت عن تجدد نفوس الناس في ذلك العهد بعد اتساع الفتوح ، وامتزاج الدماء ، وترجمة الشعر عنها .

(وفي ص 178) تحدثت عن الشعر الجديد والصنعة ، وكيف نصوا على أن الجديد قد فتح « ببشار وابن هرمة وابن ميادة ساقية العرب ، وآخر من يستشهد بشعره . ثم تبعهما كلثوم بن عمرو العنابي ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس . واتبع هؤلاء

حبيب الطائي والبحترى وعبد الله بن المعتز» .

وتحدثت عن كل شاعر من هؤلاء الشعراء ، وانتهيت الى أن :

1 - بشارا قد جدد في : الفاظه - ومعانيه - وصياغته ، وكان يعبر عن حياة جديدة ، فيها ترف في الملبس وترف في كل شيء . فلم يكن بد من أن يظهر هذا الترف في لفظه ، ومعانيه ، وصياغته » .

وقلت : انه «مما يستوقف النظر هنا ، وهو مشاركة ابن هرمة العربى لهذا الفارسى في ففق البديع في شعر المحدثين ، ولكن هذا العصر كان عصر الترجمة ، والاضطراب بين الثقافات الاجنبية . والعرب كانوا على استعداد ، فيما يظهر ، لان يخطوا حيث تقودهم الحياة » (ص 179)

وقلت : « ان ابا نواس اخذ ناحية المعنى وان لم يبعد بعدا تاما عن الصنعة . . اما مسلم فقد اخذ جانب البديع ، يطلب الاستعارة ، ويتحرى الجناس والطباق والمقابلة ، تحرى الطالب لها ، حتى اتهم بانه اول من افسد الشعر . . ولكنه لم يخرج عن نمط القصيدة العربية».

ثم تحدثت عن حرب ابي نواس الكلامية لاستفتاح القصيدة بالبكاء على الديار ، واحداثه ضجة حولها صورت للناس ان هذا الاستفتاح كان ضربة لازب على القصيدة العربية مع أن نمط القصيدة كان قد تجدد قبل العباسيين بمهد طويل مسايرة للحياة . وقلت : ان لحمة شعر ابي نواس من القديم .

واشرت الى انتصار الجديد في المادة والصورة ، وكيف اتسع على يد ابي نواس فن الغزل بالذكر ، وعلى يد ابي العتاهية فن « الزهد » ، وكيف تحول « الغزل على أيدي المحدثين عاكسا الحياة الاجتماعية الجديدة » . فجددت مادة الشعر وان لم تجدد صورته العامة . أما اللفظ فصفى ونقى وجدد أحيانا فاستعمل في الشعر اللفظ المولد ، واللفظ الفارسى ، واللفظ اليونانى . ووجد الافراط ، وحسن التخلص ، وما يشبههما من الفنون البديعية » (ص 181)

ثم تحدثت عن تائر البديع العربى ببلاغات الامم الطارئة على العربية (ص 182) .

وقلت هناك : « واذا كان هذا العصر عصر التجديد الادبى في نمط القصيدة ، والثورة على التقاليد الشعرية العربية الخالصة ، واذا كان هذا العصر وقبله شيئا عصر اتصال المعتزلة بالفلسفة اليونانية . . اذا كان هذا كله ، مضافا اليه الامتزاج الدموى والعقلى بين العرب والفارس واليونان والسرمان والهنود في تلك المملكة الاسلامية المنبسطة الارحاء ، فانه من العبث انكار تائر البديع العربى اذ ذاك بهذه البلاغات الغربية .

أما اى هذه البلاغات الاجنبية قد ترك الاثر الاكبر في بلاغة شعر العرب فذلك ما سأتحدث عنه باب ياتى » . وتحدثت عنه بعد ذلك ممثلا في البلاغة اليونانية ، وفي سبيل التذليل على هذا قرأت كتابى ارسطو « الشعر » و « الخطابة » وخرجت منهما النصوص التى تشبهها نصوص فى « البديع » لابن المعتز ، وفى « البيان والتبيين » للجاحظ .

ثم تحدثت عن انتصار الجديد (ص 183) وعن طبقتهم الاولى ، وفى (ص 184) قلت : « أتى بعد هؤلاء طبقة أخرى هي طبقة ابي تمام ومعاصريه . وكانت التقاليد الشعرية الجديدة ، والفنون التى خلقها هؤلاء قد أخذت تستقر استقرارا صحيحا . وكانت الفلسفة قد أخذت

دعائها تتوطد ، وتقوى أركانها ، وظهر العقل الإسلامى طفرة واسعة . فبدأ الشعر يستحيل مع هذه جميعا الى لون من ألوان التعبير عنها . فطلبت المعانى والفكرة ، وغدا الشعر فنا يصنع صناعة ، وانقسم الناس فيه قسمين ، تبعوا لمؤثرات وجدت اذ ذاك سنتحدث عنها . وهذان القسمان هما : أصحاب اللفظ ، وأصحاب المعنى .

وهذان النوعان قد وجدا فى الطبقة السابقة من المحدثين ، كما وجدا فى الإسلاميين والجاهليين . ولكنه فى هذه المرة كان نتاج كل ما مضى ، وابن ذلك التقدم الرائع الذى وصل اليه العقل الإسلامى ، والحس الإسلامى فى ذلك العصر .

انتقلت بعد هذا الى فصل وسمته : « بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى » .

فتحدثت فيه عن « السرقات الشعرية ، وعن عدوهم المعانى وارجاعها لأصحابها وما أصاب به القصيدة العربية من تجزؤ . وقلت :

(ص 184) « ولكن جنى ذلك العمد للسرقات ، واحساء المعانى ، على الشعر بقدر ما أفاد تطور المعنى الواحد فى الشعر كله ، فأنحصرت مواهب الشعراء اذ ذاك ، فى التنقيب عن معنى جديد لم يسمع به الناس ، ولو كان تأفها ، والتوت أساليب التعبير التواء ، الفاية منه اخفاء المعنى القديم أو زيادة شئ فيه ، أو نقله من شئ الى شئ ، حتى يفيد ذلك أن الشاعر تصرف فيه .

وقد صرف هذا الإغراق فى الجزئى الشاعر عن الكليات . فلم تتغير فنون الشعر ، وان كان الفن الواحد قد تجمع له الكثير من المعانى : الرائع منها والسفاسف .

وكان الشاعر يحس ذلك من نفسه ، ويلقى فى ذلك العنت . وكان نتاج ذلك العمل شعرا كله تكلف . لا تقبله النفس كله ، فان قبلت بعضه ، فليس ذلك كله عن طريق القلب كما يجب فى الشعر ، وانما هو عن طريق العقل .

ومن هنا انطلقت الى الكلام عن : « التحسين اللفظى ودواعيه » فقلت فيه بعد أن بينت اتساع ثقافة العصر ، وانطواء ثقافة الشاعر على الكثير منها :

« فاستماض الشعراء يومئذ عما فاتهم من مائة الشعر بشئ من موسيقى اللفظ ، فطلبوا البديع وغلوا فى طلبه ، وتعلموه وعرفوه . . . »

(وفى 186) أتحدث عن « طابع الشعر الجديد » فأقول :

« وبذلك استحلال الشعر ، فى يد هذه الطائفة الى صناعة من الصناعات يطلب فيها المعنى طلبا مكثورا ، فاذا جاء الشاعر الى دور صياغة المعنى ، وضعه فى قالب من الألفاظ مراعى فيه التسيق والزينة فيقابل بين هذه اللفظة وتلك ، وبين هذا المعنى وقسيمه ، ويلاحظ الرنين والجرس ، واللين والجناء ، وقد يمسر هذا كله فيجور المعنى على اللفظ فيخشن ويستوحش ، أو يجور اللفظ على المعنى فينقص ويفمض ، ويشتهبه الشعر بالفلسفة ، ويبعد الخيال فى البحث عن الصورة ، ويخرج الشعر يومئذ من الدائرة التى وضعت له الى دائرة النثر الفنى ، ويمس الفلسفة مساسا عميقا ، وان لم يخل من فيض نفسى ، أو خطرة تمس القلب وتهز المشاعر ، فيرضى ذلك أذهان بعض الناس ، الذين تقدمت ثقافتهم الى حد أصبحت تتطلب فيه من كل شئ ما يرضى عقولها وقلوبها جميعا . »

لملك ترى الآن - اذا كنت قد رأيت « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » من أين أخذ صاحبه كل فكرة وضمها في كتابه . بل لملك ترى الدافع الذي حمله على اختيار شعر أبي تمام ، ورفع فوق الشعر العربي كله تحت شعار « التصنيع » في الشعر العربي .

فلقد ظن بهذا أنه يضع نفسه في هذه الطائفة التي قلت عنها في الفقرة الماضية :

« . . الذين تقدمت ثقافتهم الى حد أصبحت تتطلب فيه من كل شيء ما يرضى عقولها وقلوبها جميعا » *

والذين قلت عنهم بعد الفقرة الماضية : (ص 186) *

« هذا العصر المثقف العميق ، المتجه شيئا الى العملية ، والمتفلسف ، كان يستسيغ هذا الشعر المصنوع ، لما باعدت بينه الثقافة الرفيعة وبين فطرته » *

فقبل شعر أبي تمام ورضيه ، وأحبه . وهؤلاء كانوا يسمون انفسهم : أصحاب المعاني «

كان صاحبنا في هذا الاختيار ، وفي هذا التطرف في التعصب لابي تمام يريد أن يظن به انه انما أتى اختياره ذلك لانه من « أصحاب الثقافة العميقة » ، ومن « المتفلسفة » ، ومن الذين « باعدت الثقافة الرفيعة بينهم وبين فطرتهم » .

ولعله كان أشد ولوعا بهذا ، وأوغل في التمني له ، وأميل الى تصور تحقيق هذه الصورة له عند الناس ، وهو يخرج عليهم من هذه المجهولة التي كان يعيشها ، وبهذه البضاعة التي لم ترد يوما على ما حصله في تجهيزية دار العلوم « حين قرأ الفقرات التي ختمت بها كتابي : (أبو تمام الطائي - حياته وحياة شعره) وهي :

« ولست أعرف في العربية كلها شاعرا كابي تمام : من حيث فيض شعره ، وخصبه النفسى ، وغزارته * ولا أعرف شاعرا خرج بالشعر العربي من دائرته الضيقة ، وأجراه مجرى القصص ، وتتبع فيه المعنى ، وراعى فيه اللفظ ، ووفق في أن يكسو فنه بهذا الحس الشعري الرائع ، توفيق أبى تمام .

. . . . فيه تجد الفكرة ، والجمال اللفظى ، وجمال الصورة ، وحلاوة النفس ، والشاعرية الفياضة التي لم تنهيا لشاعر قبله ولا بعده .

ولقد بلغت (الفكرة الشعرية) في يد أبى تمام أوجها ، فلما بلغت المتنبى التبتت عنده بالفلسفة ولم يكن حسه بالجمال يعدل حس أبى تمام به ، وكان أكثر شغلا بمظاهر القوة فى الوجود *

. . . . فأبو تمام عندى شاعر العربية الأكبر ، لا أعدل به شاعرا آخر من شعرائها « . نقل أغلب كتابه من هذا الباب ، ولكنه لم يستوعبه ، ولم يرتق الى مستوى الإدراك للمقومات الفنية العليا لشعر أبى تمام ، ولم يتسرب الى قلبه البعيد عن الاتصال الحقيقى بالرجل الكبير ، والشاعر الفذ ، شيء من سر جمال شعره .

فتوقف منه في بلاد حد وفلول غرب ، عند جزئيات بينها ، وأنا أدرجها فيما كنت أقول عنه وأسميه « الخصائص الفنية الصغرى لشعر أبى تمام » .

أما ما وراء ذلك من خصائص فنه الكبرى مما بينته في سياق حديثي عن حياته ، ومن

خلال الابواب الاخرى فان قواه لم تستطع النهوض به اليها .

فوقفت من ذلك العالم كله عند مثل قوله : (ص 128) فيها دعاه : الفن ومذاهبه في الشعر العربي « ا فتانا ومينا ، وهو الذى لم يقرأ من شعر ابي تمام ، بله الشعر العربي كله الا هذه الشذرات المتخلفة من ديوان ابي تمام ، وتلك النبذ الرخيصة الفقيرة من شعر من استنجد بأسمائهم ليحشو بها ما حول ابي تمام من فراغ . يظن انه سيخفى بهذه التخطفات الواضحة انه قلب « أبو تمام » الكتاب فجعل « القدماء والمحدثون » أصلا ، وأبا تمام فرعاً . وهو حين يقدمهم يقدمهم بنفس الالفاظ التي يكررها عند الحديث على كل شاعر ، وقد شرق من أقصى العراق ، وغرب حتى أقصى الاندلس ، يقيسهم جميعا على ابي تمام الذى يقول عنه هناك :

« كان أبو تمام يعتمد في شعره على الغموض ، وأن تفشاه سحب زاهية من الفلسفة والثقافة . وان الإنسان ليشعر شعورا واضحا أثناء قراءة ديوانه بان الحواجز التي كانت تفصل بين الشعر العربي من جهة وبين الثقافة والفلسفة من جهة أخرى قد رفعت ، ولم يعد هناك ما يعوق التزاوج والاتصال الشديد بين التفكير الفنى والتفكير الفلسفى والثقافى . وان الإنسان ليحار ازاء هذه الموهبة النادرة في المزج بين التفكير الثقافى والتفكير الفنى ، فكل منهما يغمس في ليقة الاخر ، ويصغ بأصباغه ، فيتغير عن شيائته المعروفة ، وهيئاته المألوفة . ونحن نستطيع أن نلاحظ هذا الصنيع الغريب من المزج والاتحاد في جانبين متقابلين ، إذ نرى الإنكار الدقيقة تدور في وعاء التصوير فيحدث ضرب من الرمز البديع ، كما نرى الطباق يدور في وعاء الفلسفة فيحدث ضرب من الطباق الفلسفى الغريب . أما الرمز فولده تفكيره العميق ، إذ كان يلف لون التصوير على هذا الجانب العقلى في شعره أو بعبارة أدق الجانب الفلسفى ، فتحدث تلك الرمزية الواسعة التي يلاحظها كل من يقرأ فى أشعاره . وقد كان يستعين على أحكامها بصفيين هامين من أصباغ التصوير ، وهما التجسيم والتدبيج ، إذ نراه يجسم معانيه في صور حسية لا يلبث أن يدبجها بالوان مادية ، وانظر الى قوله في بعض ممدوحيه :

أبدت لى عن جلدة الماء الذى قد كنت أعهده كثير الطلـب
ووردت بى في بحبوحة الوادى ولو خلفتـى لوقفت عند المذنب

أى « رمزية » واسمة أو ضيقة في شعر ابي تمام ؟ هذا ما يعرفه وحده . وأى ذوق غث!

هذه هي الترجمة الباردة لحديثى الماضى عن فن ابي تمام وفن طائفته ومعاصريه من الشعراء . قد رقصها ، وصبغها ، وراكم عليها من الدهون والالوان ما أحال الفكرة الصريحة السمحة الحلوة ، الى وجه غائبة من غوانى السوق ، تعرض عليك نفسها في تلخ تنبو به النفس عنها . وفيها من تكلف « الفنية » ، ومن تصنعها في هوج كاشف عن نقص في الذوق ، وعن ارتداء في أحضان ما لا يحسن . والواقع ان هذه العملية ، وان قصد بها صاحبها الى تنكير الفكرة الماخوذة غصبا من « أبو تمام » ، فانها كذلك تنفيس عن احساس ثقيل يلف بعنق هذا الرجل الذى جاء من « تجهيزية دار العلوم » الى كلية الآداب ، لم يتم ثقافته حيث نشأ وأهل للعلم ، ولم تنقله طبيعة ماضيه الى روح ثقافة الطلبة الذين جاءوا الى كلية الآداب من ينباع التي أعدت للولوج في نوع دراساتها ، والذين أعدتهم المدارس الابتدائية والثانوية باللغات الكثيرة ، ونهلوا وعلوا قبل أن يدخلوا كلية الآداب من أدب لغتين أوروبيتين على الأقل ، ثم مضوا في كلية الآداب يتيمون على الجادة التي تؤلف استمرارا طبيعيا لسيرتهم وثقافتهم . فهو يرى نفسه غربيا فيهم ، يقف على الخط الفاصل بين نظامين ، المقسم بين ثقافتين ،

لم تتم له أولهما وكان عاجزا عن الانتقال الى ثانيتهما ، ولو بقى حيث كان فلعله كان تم نفسه ، واستقام على رسله ، ومضى لطيبته في مدرسة أبرزت طائفة من أنبغ من نبغ في مصر في علوم العربية ، وما كان يستطيع الخوض في ثانيتهما فهو حائر ، وهو ضيق الصدر ، وهو ينطلع في نكد دائم الى غربته التي ساقته اليها مفامرته ، فلا يجد ما يعينه في مازقه الا ادعاء الارتفاع « بالفنية » فوق الفنانين . فهو مصور يخلط من الالوان ما لا يعرف ، وهو موسيقى يصدر من الانغام الخليط المهوش ، وهو لا يندوق منها نفما واحدا ، ويتشوق « بالرغم الموسيقية » وهو لا يدري مدلولها بمعنى أقول الموسيقى « في الآيات » وفي « الشمر » ، ورأى أحدث عن « الصورة » اللغوية ، فمضى يسبق على طريق لم أطاه في هذه المناسبة ، ليقول للناسي ، ولما فرضت عليهم زمانته في كلية الآداب : انهم اذا كانوا قد عرفوا النقد فهو منهم أنقد ، واذا كانوا يقرأون اللغات فهو لها أقرأ ، واذا كانوا قد خالطوا آداب الشعوب ، فانه قد عاشها ، وغاص فيها حتى غرق ، واذا كانوا قد تحدثوا في « موسيقى الالفاظ » ، وتصويرها فانه سينقلهم الى موسيقى النغمات بنوطاتها ، وتصوير اللوحات بالوانها .

هذا هو السر في الدخول على هذه « الفنانة » من رجل لا يدري مما غير نفسه فيه شيئا . رجل يحاول أن ينزع عن نفسه جلده ليلبس جلد غيره ، فلا يستطيع لأن ريحه تدل على حقيقته . يريد أن يحل « عقدة » الوضع الذي تلقى بنفسه فيه من غير أهبة له أو عدة .

في سنة 1939 كنت في باريس في بعثة بعد ان وقف طه حسين متخفيا وصريحا في طريق سفري الى أوروبا ست مرات كانت هذه سادستها . فلقد كنت الاول في سنى الدراسة كلها وكنت من حسن السمعة بالكلية بالمكان الذي جعل أحمد أمين يضعنى في البعثة الى فرنسا لأول مرة سنة 1934 ، وكان طه حسين اذ ذاك قد أخرج من الجامعة فهو يعمل في جريدة « كوكب الشرق » ، فابلغته تلميذته الأثرية الخبر ، فنوسط لدى وزير المعارف يومها ، وهو عدوه الذى أخرج في عهده من كلية الآداب ، في تحويل المكان الذى كان مقدرًا أن أملاه الى قسم الفلسفة ، مساعدا في ذلك الاستاذ مصطفى عبد الرزاق ، وكان الاستاذ لا يعلم انى أنا المرشح لهذا المكان كما قال لى بعدها ، فلقد كان يمتبرنى تلميذه . وغضب أحمد أمين لهذه الاستهانة به ، والوقوف في طريق القسم الذى كان يرأسه ، ولكن طه حسين لم يعبا بفضبه ومضى طالب الفلسفة ليملأ مكانى في باريس ، وليملأ فيها الدنيا صبخا حول اسمه . ثم مضى طه حسين على طريقه يسد الباب أمامى بكل وجوه الحيلة التى يفتنها . وفي سنة 1936 كانت البعثة الثالثة التى أخبرنى أحمد أمين أنها لى ، ولكنها حولت بعون طه حسين الى أحد أصحاب أستاذ من القسم كان من متخلفيه ، وكان قد لقي الفضل في المحاماة فجيء به الى كلية الآداب ليلقى عددا أسبوعيا من الدروس أجر الواحد منها أربعون قرشا . ثم انسد هذا الباب بعودة عاكف بك أستاذ التركية فلم يجد طه حسين مكافاة له الا أن يملأ به مكانى في البعثة لان طالبته كانت قد عجزت عن كتابة رسالة الماجستير عند الترشيح الثالث الذى خابت فيه آمال أحمد أمين فاصر على تعيينى مميذا في كلية الآداب وكنت من بين هذين الاول الواحد الحاصل على الماجستير ، وقد قال لى أمين الخولى : ان أحمد أمين لم يقف في حياته في وجه معارضة طه حسين باصرار ، كما وقف هذه المرة ، وكنت قد حصلت على الماجستير في مستهل صيف ذلك العام على حين لم يكن قد حصل عليها أحد من زملائى ، وقام بين الاستاذين صراع اتقاه طه حسين بقبول تعيينى على شريطة أن تقبل معى معيدة تلميذته الأثرية . وكان موقف أحمد أمين في رفض هذا ضعيفا ، فقد كانت لذلك قصة كان يرويها أمين الخولى لتلاميذه دائما : قصة من النسوية بينى وبينها في الليسانس بعد تورط سبق واحتج عليه الطلبة في آخر لحظة بعد ان أتمت قائمة النتيجة لجنة مكونة من الاستاذ الشايب رحمه الله ، ومن أمين الخولى ، ومن

عبد العزيز أحمد ، وكلهم كانوا يشتركون في جمع درجات خريجي الليسانس ، وكلهم هناوني بالاولوية قبل ظهور النتيجة بيومين ، على أنى وحدى لا يشاركنى أحد .

كان موقف أحمد أمين يومها في مواجهة تنفيذ هذا الشرط ضعيفا فنزل عنده ، ثم انثال الفيض فعين في الجلسة نفسها اثنان آخران فصرنا اربعة .

ثم كانت الخامسة ، وفيها أسفر طه حسين تلميذته عن طريق التفاتة خادعة اذ انه اختفى وراء القول « بأنها لن تسافر لان أمها ترفض سفرها ، وانما الامر في هذا تكريم لها » . ولم يوافق مجلسا الكلية والجامعة الا بعد أن قال طه حسين فيهما هذه القولة . ولذلك خرج القرار لأول مرة في تاريخ البعثات بأن الطالبة فلانة قد ووفق على سفرها بصفة أصلية ونحيب محمد البهيتى بصفة احتياطية .

وقص على قصة ما حدث بجلسة مجلس الكلية عزيز سوريال أستاذ التاريخ ، بعد أن قصه على أمين الخولى . وقصه على بعد ذلك من أعضاء مجلس الجامعة الدكتور سليمان عزمى باشا ، وكامل بك غالب فيما بعد .

وفي ذلك العام سعى أحمد أمين سعيه ليوقف سفر الطالبة عن طريق اقتناعها بترك البعثة لصاحبها فابت وأصرت على السفر ، وما كانت قصة رفض أمها سفرها الا نقابا تم من ورائه تنفيذ ذلك السفر .

وفي أول سنة 1939 خلا المكان الذى أصر أحمد أمين على اسفارى فيه ، وتصلب حتى خشى المجلس انهيار العلاقة بين الرجلين كما أخبرنى أمين الخولى ، وكان له ما طلب فسافرت في أول فبراير سنة 1939 ، ولم أبق هناك أكثر من سبعة أشهر عدت بعدها بأمر مدير البعثة مع العائدين الى مصر لقيام الحرب .

في هذه الفترة سرقت من متحف اللوفر لوحة لرسام مشهور تدعى « المنيد » أو « المستهتر »: l'Intransigent وقامت قيامة باريس وقعدت لان الإحتياطات كانت متخذة في المتحف للحيلولة بين آثار المتحف وبين السارقين ، بما في ذلك الإنذار الكهربائى عند مس الصورة . وافلتت باريس افتلاء في كل مظان سرقة الصورة . ووجدتها البوليس أخيرا في مسكن طالب يوغوسلافى من نزلاء باريس ، وكان الطالب في سبيل تكريها لتهريبها قد كساها بالوان اختارها ليخفى حقيقتها .

ولما سألته المحقق : عما قصد اليه بهذا الطلاء الذى شوه به الصورة أجاب : بانه قد أخذها من المتحف ، على نية ردها اليه بعد أن يصلح ألوانها التى يرى فيها أنها غير سليمة ، وأن راسمها الاول قد أخطأ فيها .

وقد ذكرت هذه القصة ، وأنا في مصر أنظر الى ما صنعته لى تمام يشوه هذا التشويه ، ويمسخ هذا المسخ ، وعرفت أن الطالب اليوغوسلافى لا يمثل طرازا وحده .

في الفقرات الماضية التى نقلتها اليك من « أبو تمام الطائى - حياته وحياة شعره » الاصول الغزيرة التى لم يلمح فيها صاحب « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » الا هذه الحلى البيانية الثلاثة التى استلها من باب « الخصائص الفنية لشعر أبى تمام » ومن هذا الذى قدمته من فقرات الكتاب .

فالفن الشعرى العربى في جميع المصور عند هذا « الفنان » تنحصر مقوماته ، ومكوناته

في ثلاثة أشياء : الاستمارة والجناس والفكرة الفلسفية . ومن الخلط والمزج بين هذه العناصر الثلاثة خرج صاحبنا الى تشخيص « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » في كلمات محدودة العدد ، ينقلها من شاعر الى شاعر ، ومن عصر الى عصر ، ومن اقليم الى اقليم . ثم جاد عليه أخيراً « بالطباق » بعد أن أجله ليطلق عليه اسم « نوافر الاضداد » .

ولو أن مدرسا في الثانوية أعطى تلميذه أبيانا أى أبيات من الشعر وقال له :

« أجر الاستمارة وبين أوجه البيان في هذه الابيات » ما قل ما يقوله عما قاله هذا « الفنان » المنقطع النظر بين الفنانين . والحق أقول : ما كان يمكنه أن يطلع بالإصباح والالوان وجه التعبيرات التي تركها لنا أسلافنا سمحة ، بسيطة ، جميلة في هذا الباب بقدر ما أبرزها به هذا « الفنان » .

وقد تلاحظ في النصوص الماضية تكريري الحديث عن « فن » أبي تمام ، وعن « فن » الشاعر العربي ، وقد استقى من هذه العبارات في اطلاقاتها المعتدلة في أمكنتها « عنوان كتابه : الفن ومذاهبه » ولكنه عمم الاطلاق على الشعر العربي كله في مجهود لم يعتمد فيه كما رأيت على نفسه ، ولم يقرأ له شيئا ذا بال . ولقد هانت من أجل هذا لدى الدكتوراة ، وتواضعت عندي الشهادات ، حتى لقد أبيت بعدها أن أقرن اسمي فوق كتاب من كتبي بلقب «الدكتور» بعد أن اقتحمت طريقى اليه ، تكريما لهذه « الدكتوراة » التي قدمت لصاحبنا جزاء على هذا الفقر.

ولعله اعتمد على نفسه بعض الاعتماد حينما جاء الى اختيار الامثلة . ذلك انه خشى أن تقترن القضايا المنقولة من كتابي بالامثلة والشواهد المضروبة فيها ، وقد جمعت اجمل ما في شعر أبي تمام ، فيتساقط القناع المرقش المرقع عن الوجه الحقيقي للعمل الذي انتحلته ، ويصرخ فيه الاصل .

فلم يجد الا الفث الرخيص النافه ، بل المعيب أحيانا من شعر أبي تمام ، ومنه ما مر بنا من « جلد الماء » ، و « الطحلب » .

وكذلك تجد أصل ما ظنه براعة في التجنيس في ثلاثة ألفاظ صب فيها كل الشعر العربي ، وراكم فيها جميع الشعراء العرب ، وانتحل لها معاني لا تدل على شيء أكثر مما قدمه لها العرب . وتلك هي : الصنعة والتصنيع والتصنع .

وقد ذكرها العرب في مطلقاتها السليمة كما عرفوها في عمل الشعراء . وعندهم ان « الصنعة والتصنيع » اسمان لمدلول واحد ، « والتصنع » التكلف . ومن عجب انه خطا ابن المعز والجاحظ في اطلاقهما « الكلمة » على مدلولها الذي عرفاه لها في العربية .

فرماه النزق نحو التماسي أى جديد يدخله على اللفظين ليفرق بينهما ، وينفى لفظ « الطبع » الذي أطلقوه على الشاعر اذا قويت شاعريته ، فحرفك شعره عن الاحساس بالصناعة الموجودة في شعره .. وهم لا يقولون ذلك غافلين عن القدر المراعى في الشعر من ملاحظة قواعده ، واصوله ، وتقاليده . وهذه القصة الصغيرة تعين على تحديد مفهوم الطبع عندهم . يقول الجرجاني في الحديث عن يتعصب للقدماء على المحدثين (ص 51 من الوساطة) :

« ولقد يتفق لاحد هؤلاء غلبة الانصاف على قلبه ، في الوقت بعد الوقت ، فيخلص رداء العصبية ، ويصفى ، ويميز فيرجع . حدثني جماعة من أصحاب أبي ريش القيسي ، ولا نعرف في زماننا راوية تقدمه ، وكان معروفا بالتحاميل على هؤلاء ، والفض من أبي تمام والبحترى

خاصة ، حتى ان نسخ هذين الديوانين قلت في البصرة في وقته لقله الرغبة فيها : انه انشد ذات يوم قول البحرى :

نظرت الى ظران فقلت ليلى هناك ، واين ليلى من ظران ؟
ودون مزارها اجفاف شهر وسبع للمطايا او ثمان
ولما عرفت اعراف سلمى لهن وقتنت قنن القيان
تصوبت البلاد بنا اليكم وغنى بالاياب الحاديان

فقال : احسن والله . من هذا البدوى المطبوع ؟ فقيل : انها للوليد بن عبيد . فقال : أعد ، فأعيدت . فرجع عن رايه فيه ، وحض الناس على رواية شعره .

فهذا الناقد الذى يقول عنه الجرجاني : انه اروى اهل عصره . يصف الشعر « بالطبع » ، وهو يرى فيه من الجناس « نظرت » و « ظران » ، (وعرفت اعراف) ، و « قننت قنن القيان » . لم يغفل بالطبع عن هذا كله في أربعة أبيات ، وهى من صميم « الصنعة » ومع ذلك فقد وصف شاعرها « بالمطبوع » .

ولكنه لم يكن ليقرأ ، ولم يكن يسمى الى تحقيق تاريخ ، وتشخيص عصر ، وانما كان مكثفيا بالتخييل الكاذب بالابتداع الوهمى يحرص على أن يقرنه بالمتنحل المنهوب ليعيش لنفسه .

وليس في عمل طالب مبتدئ من مهانة العمل ، ومن تبلبله أشد مما وقع فيه من الصفحة الاولى من كتابه « الفن . الخ » التى يحاول فيها أن يربط بين « اليونان » وكلمة « الشاعر » وادعاء وحدة معناها عند الامتين . بنص لم يتم قراءته في « اللسان » ، وبتفسير للكلمة لم يعرف مصدره الاول في اللغة اليونانية . لكنه بدأ يلقي في روع قارئه انه يعرف ان معنى الكلمة في اليونانية هو « الصانع » ، وأن معناها في العربية هو « العالم » . ثم قال : وابن خلدون يقول : ان « العلم من الصناعات ، واذن فالشعر عند العرب بمعنى « الصناعة » ، ثم اورد قولة مروية عن عمر رضى الله عنه : « خير صناعات الرجل ان يتقدم بابيات من الشعر بين يدي حاجته » . وبهذا التقى عمر رضى اله عنه مع اليونان في تفسير « الشعر » بأنه « صناعة » . وكان كل من قدم لحاجته بشعر شاعر صانع ولو كان مقتبساً .

وهو في هذه كلها قد عدم الصواب ، وتردى في أخطاء لا يقع فيها مبتدئ في دراسة العربية ، وقصر في القيام بالوفاء بقراءة المادة التى ارجعنا فيها الى اللسان . ان « شعر » بمعنى « تظن » أيضا ، وبمعنى « درى » ، وأن الشاعر يتظن لما لا يتظن له غيره . لكنه لم يقرأ من « المادة » هذا القدر الدائر حول الموضوع الذى كان يتلمس معناه في المعجم . فانقطع عن السير فيها . ثم انه لم يكن بحاجة الى الالتفاف بجناح ابن خلدون في هذا « الاستدلال المائر » فلو انه كلف نفسه البحث عن مظنة تشخيص ابن خلدون « للشعر » في مقدمته لوجده بنص على « صناعة الشعر » نصا صريحا لا لبس فيه . لكنه لم يكن ليقرأ ولم يقرأ ؟ وقد أعفاه صاحبه من اقامة الاساس الذى سيبني عليه رسالته لم يكلفه الا تنكيره ؟

ولم يدرك العلة في تفسير أرسطو كلمة « الشاعر » اليونانية بمعنى الصانع ، لان الطالبة التى تكلفت القيام بالبحث عن الكلمة كانت لا تمد بنظرها الى ما وراء الكتب المقررة

عليها في قسمها فقدمت له ما وجدته في كتاب ثانوى في « الادب الانجلىزى » ، ولعلها لم تتم قراءة ما جاء في الكتاب بعد العبارة التى نقلتها له ، وهى تقع في الصفحة الثانية من الكتاب .

وكان على ما وطن النفس عليه من التلويح بالاسماء ، وبالعلم الواسع بحيث أشار الى اريسطو وعمله من النظر في تنظيم مصطلحات الشعر وتقاليده هو ومن جاء بعده من النقاد : عملية كنس للتاريخ الادبى . وما عرف انه يكشف ظهره لقارئه ، فلو انه رأى كتاب « الشعر » لرجع اليه بدلا من الرجوع الى ما يكل جونس .

فاريسطو هو الذى فسر الكلمة « بالصانع » وليس سواه . والشاعر اليونانى « صانع » بمعنى انه يقيم بناء قصة ، يبتكرها ، وينسق اقسامها ، ويرسم شخصياتها . ولذلك اعتبر « صانعا » لانه يخلق ما يقدمه .

اما « صناعة الشعر » في العربية فترتد الى مرحلة تحصيل قواعده ، ونظام قصيدته ، واوزانه ، وقوافيه . ولعل الشاعر العربى لا يعرف عن هذه جميعا شيئا منظما ، مقعدا ، ومع ذلك فانه يقول الشعر على هدى تكوين القالب الذى وقر في نفسه ، ورسخ في قلبه عن طريق قراءة الشعر ، والانفعال به .

وليس منا من لم يقرض الشعر ابتداء قبل ان يتعلم قانونا واحدا من قوانينه . ولذلك كانت وصية ابن خلدون لمن اراد الشعر ان يكثر من قراءة رائته ، وحفظ رائته ومختاره حتى يتكون في نفسه القالب الذى تنصب فيه بعد ذلك عبرات . ولكن بشرط من انقياد الفطرة ، وصحة الطبع الذى لا يستطيع الشاعر ان يكون بغيره شاعرا .

لكنه كان في أمس الحاجة الى ان يدخل على صفات العمل الشعرى بثالوثها العربى عند نقاده القدماء والمحدثين ، ولكن بشيء من التحك يوهم به قارئه غير العارف بانه قد دخل على جديد ، فكان تجنبنا غير موفق حين التقت اطرافه القديمة على غير ميعاد ، وحين جمع ثالوثها في صف تظنن فيه « جناسا » ، ثم كانت الطامة حين اعتبر هذا الثالوث ، وما حشى به من الثلاثة العناصر التى ظن انها كل مهيئات الشعر ومعقد « الفن » فيه والجمال ، ومذاهبه كلها .

ولقد اخبرنى بنفسه بعد ان طبع رسالته ان صهره لما قراها قال له : ان كان هذا هو الفن في الشعر العربى فانه لا يزيد على لعبة الشطرنج . فقلت في نفسى : ان الرجل حصيف ، ولكنه بالغ فهو لا يكاد يزيد شيئا على لعبة (الضاما) . ففى الشطرنج ست عشرة قطعة تتنوع طرق انتقالها ، وتتفاوت ، وتتراكب ، وتتداخل ، ويتسع مع ذلك كله ميدان المناورات ، والمفاورات كرا وفرا ، هجوما وتراجعا ، ووثوبا ، وانطلاقا عموديا أو منحرفا ، لخانة واحدة أو لثمان . اما في الضامة فحركة واحدة مستقيمة أو منحرفة لقطعها كلها تؤلف مجموع اللعبة .

لم ير في عمل الشاعر الا ظاهره المحسد في شكل اوزان الشعر وقوافيه ، وفي ترتيبه الموضوعات في القصيدة جريا على تقليد شاع ، ولكن الشاعر لم يكن يلتزمه الفريضة المحتومة . ونظرة الى الصور الباقية من الشعر الجاهلى والاسلامى ، وشعر أبى تمام نفسه الذى يتحك به ، تبين ان ترتيب الموضوعات في القصيدة لم يكن يلتزمه الشاعر الا اذا راقه ان يتخذ .

وابن خلدون الذى تحك به من اول صفحة في كتابه ، دون ان يتصل به — على ما

يشهد به افتتاحه كتابه - هو الذى يقول :

« ان ملكة اللسان غير صناعة العربية ، ومستغنية عنها في التعليم . والسبب في ذلك ان صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة . فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست هي الملكة ، وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ، ولا يحكمها عملا .

... وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفسها . فان العلم بقوانين الاعراب انما هو بكيفية العمل ، وليس هو نفس العمل . ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة في صناعة العربية ، المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذى مودته ، او شكوى ظلامة ، او قصد من قصوده اخطا فيها عن الصواب ، واكثر من اللحن ، ولم يجد تاليف الكلام وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل والمفعول ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية .

فمن هذا نعلم ان هذه الملكة غير صناعة العربية ، وانها مستغنية عنها بالجملة « ثم يقول : « وتعلم مما قرناه في هذا الباب ان حصول ملكة اللسان العربى انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المتوال الذى نسجوا عليه تراكيبهم ، فينسج عليه هو ، وينزل بذلك منزلة من نشأ معهم ، وخالف عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم » .

وقد رأينا عبارته عن « يجيد فنى النظم والنثر وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول »

وانه ليمضى في طريقه هذه حتى اذا بلغ الى الحديث عن الشعر عاد الى ترديد ما قاله من ان تكوين ملكة اللسان العربى في غنى عن القواعد والقوانين التى « هي علم بكيفية العمل وليست هي العمل نفسه » .

فيقول عن الشعر :

« وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كلها . والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والإرتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة .

والشعر من بين الفنون صعب المآخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين ولا يكفى فيه ملكة الكلام العربى على الاطلاق ، بل يحتاج بخصوصه الى تلمظ ومحاولة في رعاية الاساليب التى اختصته العرب بها ، واستعمالها لها .

ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند اهل هذه الصناعة ، وما يريدون بها في اطلاقهم . فاعلم انها عبارة عندهم عن المتوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ، ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه ، كما هو وظيفة العروض . فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن نطاق هذه الصناعة الشعرية .

« وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب

خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب أو النوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان ، فمرصها كما يرص البناء في القالب أو النساج في النوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه .

« ولا تقولن : ان معرفة القوانين البلاغية كافية في ذلك ، لانا نقول : قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هياتها الخاصة بالقياس ، وهو قياس على صحيح مطرد ، كما هو قياس القوانين الاعرابية .

« وهذه الاساليب التي نحن نقرها ليست من القياس في شيء . انما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب لجريانها على اللسان حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل على مثالها ، والاحتذاء بها في كل تركيب من الشعر . كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق ، وان القوانين العلمية من العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه . .

« ولهذا قلنا : ان المحصل لهذه القوالب في الذهن انما هو حفظ أشعار العرب وكلامهم » . ثم يقول :

« فما كان من الكلام منظوما ، وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا . وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المنبئ والمعري ليس هو من الشعر في شيء ، لانهما لم يجريا على أساليب العرب » .

والملاحظ في أقوال ابن خلدون كلها انه انما يتحدث الى المتأخرين عن كيفية تحصيلهم أسباب القدرة على قول الشعر في الحدود التي قاله فيها العرب ، ولا يتحدث عن العرب الاصلاء في عروبته . فقد ذكر نصا في هذا التوجيه « المتأخرين » الذين يحصلون الشعر « صناعة » وتلقيا لقواعده وانه حين يتحدث عن تكوين « ملكة » الشعر بالاكثار من حفظ الأشعار العربية الصحيحة الرقيمة حتى يتألف بها في الذهن القالب الذي يريد ان تفرغ فيه عبارة الشاعر ، ينص على أن قوانين العربية ، وقواعد البيان والبلاغة لا تدخلان في تشكيل هذا القالب ، وانما هي ضوابط عقلية للسان من ليس بعربي اللسان والسليقة والملكة . .

وحيث يقول :

« وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ، ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقى الملكة الحاصلة ، لان الطبع انما ينسج على منوالها » .

كل هذا قاله ابن خلدون ، ففرق في وضوح النهار بين صناعة الشعر باعتبارها سياسات منطقية ، وقوانين مقعدة استخلصت من واقع الشعر تبينا لكيفية عمله ، وليست قاعدة ينهض عليها عمل الشعر .

وانما القاعدة هي الملكة التي ترسخ رسوخ القالب في الذهن ، والخيال : « فبارتقاء المحفوظ في طبقته ، ترتقى الملكة لان الطبع انما ينسج على منوالها » .

« فالطبع » هو المنبئ الاخير للشعر ، والملكة هي الحفيظ المهيم الساهر على اقامة الضفاف التي يجرى فيها هذا الشعر في تدفقه الطوعي ، وفيضه .

وابن خلدون في هذا - على سعة علمه ، واطلاعه الذى لا شك فيه يمضى في الطريق التى رسمها له أساتذته المباثرون ممن اتصل بهم ، وأساتذته الذين سبقوهم من العلماء والنقاد الذين تركوا آثارهم نبراسا يستضيء به اللاحقون .

وهم بناء على هذه النظرة الفاحصة لكيان الشعر الذى به يقوم قد قسموا الشعراء الى :

- 1 - أصحاب الطبع .
- 2 - أصحاب الصنعة ، أو المصنوعون ، والكلمتان تفيدان عندهم معنى واحدا .
- 3 - المتصنعون ، أو المتكلفون ، والكلمتان تفيدان عندهم معنى واحدا .

فما غلب الطبع فيه مع ملاحظة أصول الصناعة الشعرية واستيفاء أركانها فهو ابن « الطبع » وما تجاوز النظر فيه حدود هذه العملية الى رصد الوقت الطويل له لاختيار اللفظ ومرامجه ، وتجويده ، وتوفير الجماليات بألوانها ، فأولئك هم « الصناع أو المصنوعون » . لم يفرقوا بين المعنيين .

ومن الأطراف التى تصلح للنتدر أن يأتى هذا الناقل عن « أبى تمام » وصاحبه ما قدمه فيخطيء ابن المعتز في جعله أبا نواسى من « المصنعين » ، والجاحظ « لانه سلك في المصنعين ابن هرمة والنمرى والعتابى وبشارا ، ثم يصف القدماء جميعا بالاضطراب بين المذهبيين .

والواقع اننى لا أدرى أى مذهبين فما أراد العلماء المتقدمون الى جعل هذه الصفات الجزئية من العمليات البيانية مذاها ، ولا كانوا من صغر الاحلام والفهم للفن الشعرى العربى بحيث يجعلون هذه المهمة التى يؤديها الطالب المبتدىء للبلاغة والبيان والبدع أسسا يفرعون عليها الشعر العربى ويمذهبونه . ولا كانوا قد وقع لهم من ظهر الغيب أن سيأتى بعد قرون من سيجعل الجمع بين جزئيتين من جزئيات « البيان » في بيت أو بيتين صاحب مذهب لا يقع فيه معه من أفرد ، حتى ينزلوا معه - وهو الذى لم يقرأ من شعر شاعر شيئا الا ما عثر عليه بالصدفة المحضة في طريقه - الى هذا التقسيم السخيف حتى لو صح صدوره عن مفتقه بناء على احصائية شاملة كاملة محللة لشعر الشعراء السابقين واللاحقين جميعا حتى ينتهى الى أن هذا الشاعر وحده دون غيره قد صنع ذلك في شعره ، ولم يصنعه سواه . لم يكونوا يعلمون مقدما أن هذه المخزقة ستقع يوما ما . وهم في جدهم العامل - لا شك - ما كانوا يتصورون أن سيأتى بعدهم عهد سفيه يستطيع فيه انسان لم يقرأ شعرا ، ولا نثرا ، ولم يحصل من علوم العربية الا القدر الذى يحققه طالب الثانويات في عصرنا هذا ، ثم يمد بعنقه القصير متطاولا على أقدارهم ، واصفا إياهم « بالاضطراب والخلط بين مذهبين من مذاهب الفن » . وعلى من ينصب هذا الوصف : على الجاحظ ، وعلى ابن المعتز .

لم يكونوا من غير شك يتوقعون أن سيأتى يوم يتعرض لهم فيه هذا التعرض انسان لم يستطع أن يحقق لنفسه فكرة واحدة ، أو حكما ينبع من تجربته ، وانما كل عدته ما ينطقه من الفخر مما تساقط عن موائدهم .

لم يكونوا ليتصوروا أن كاتب الصفحة الاولى فيما دعاه « الفن ومذاهبه في الشعر العربى » ، وهى صفحة تسود وجه جيل سمح لئى صاحبها أن يقوم مقام الاستاذ في جامعة

من جامعات مصر الكبرى ، سوف يجد الفرصة ، والباب مفتوحين لينشر كتابا يلطخ فيه الحقائق البيضاء الناصعة التي اختطفها من غيره في حماية رجل نزق قد أطلقت الظروف السياسية الكاسفة يده في الجامعة ، رجل يسعى في استماتة الى تعجيل زف الكتاب الى الناس ، ولو تسول نفقات طبعه من عبد العزيز فهمى باشا .

هذه الصفحة الغريبة التي يحجل حجلة الفراب الجريح المترنج بين فقراتها ، في فقرها الذهنى ، وفي انتحالها أسماء المراجع دون الاتصال بها ، وفي احتباس كاتبها نفسه على ترشيح فكرة حجرت له تحجرا ليقول بها في غير تعقل ، أو فهم حتى للنصوص التي قدمها فيها زاعما انها تسند قوله وقول أستاذه بأن الشعر لا يمكن الا أن يكون « مصنوعا » . وأن ليس في دنيا الشعر العربى شيء اسمه « الطبع » استغفر الله : بل في دنيا « الشعر اليونانى » كذلك .

واسمع أول فقراتها . يقول :

« الشعر ليس عملا سهلا بحيث يعتقد كثير من الناس ، بل هو عمل معقد غاية التعقيد ، هو صناعة صعبة تجتمع لها في كل لغة طائفة من المصطلحات والتقاليد ، ما يزال النقاد منذ ارسطاطاليس يحاولون أن يصفوها بما يقيمون عليها من مرادف ومقاييس .

وقد يكون من الغريب أن نجعل الشعر صناعة ، ولكنه الواقع ، فكلية شاعر عند اليونان معناها صانع (ومرجعه هنا الصفحة الثانية من كتاب انجليزى مؤلف صغير يدعى مايكل جونس ، والكتاب اسمه : الادب الانجليزى) ، ولذلك كنا نراهم يقرنون في أبحاثهم الشعر الى الصناعات والفنون الجميلة من نحت وتصوير ورقص وموسيقى) .

ولنقف هنا قليلا لننظر في هذه الفقرة ، ونظل من ثغراتها البادية على مدى المجز ، والقصور عن فهم النصوص ، وعدم الاتصال بالمراجع التي يلوح باسمائها ، وبالآداب التي يشير إليها من غير نظر فيها أو تهيب للدخول على أولياتها فضلا عن التغافل الذى يوهم به في عباراته .

« الشعر صناعة صعبة تجتمع له في كل لغة طائفة من المصطلحات والتقاليد ، ما يزال النقاد منذ ارسطاطاليس يحاولون أن يصفوها بما يقيمون عليها من مرادف ومقاييس » .

« في كل لغة » وصاحبنا لا يعرف لغة واحدة يرجع فيها الى كتاب واحد من كتب هؤلاء النقاد منذ ارسطاطاليس . والمصطلحات الشعرية ذات مفاهيم مشتركة بين جميع اللغات ، وخاصة الاوروبية ، والرجوع اليها في لغة يعادل الرجوع في سواها . لكنه يريد التسلل الى وهم القارئ بأنه رجل يعرف من عمل النقاد ما ينبسط ويتسع حتى يشمل اللغات جميعها ؛ وما عمل فيها منذ ارسطاطاليس .

ولعل في باب التسامح ما يتسع لمرور هذه الدعوى الشاملة الجامعة ، ولكن يبقى منها فرع جزئى نص هو عليه باسم صاحبه اريسطو ، فإفاد من غير اضطراب أو لبس أنه رأى اريسطو ، وهذا يلزمه بأن يكون قد رأى كتابه « الشعر » من كتابى الذى القاه طه حسين بين يديه ما يشعره بان في الكتاب ما يطلبه من ترسم « مصطلحات الشعر وتقاليده » ، هذا حتى ولو لم يرجع الى كتابه « الخطابة » الذى ترجمت عنه ما ترجمت في نفس الباب الذى أشرت اليه .

لكنه حتى في هذا كان يضحك على ذقن قارئه فلم ير شيئا من « شعر » أريسطو ، بل لعله لم يتم قراءة ما نقلته عنه هناك .

ذلك انه ياتي بعد هذه الفقرة فيدل على انه لم ير « شعر أريسطو » . وذلك عند ما ارجع الى اليونان جميعا ان معنى كلمة « شاعر » عندهم هو « صانع » . ثم رجع الى مصدر علمه بذا الى كتاب مايكل جونس ، الكاتب الانجليزي الذي يمر عرضا بمعنى هذه الكلمة في اليونانية لانها ليست من الاصول في كتابه .

والواقع ان الذي فسر كلمة « الشاعر » في اليونانية « بالصانع » ، وانحدر اليها هذا التفسير عنه وحده ، هو « أريسطو » . وقدم هذا التفسير الذي اختاره لعله بينها ، ولم يقدمه غيره من اليونان . فهو الذي أتى للكلمة بهذا المعنى . ولعله وحده ، فلست أعرف لغيره من اليونان — فيما اتصلت به من أدبهم — كتابا غيره كتب عن « الشعر » كتابا قائما برأسه . حتى أفلاطون استأذنه لا أعرف انه فسر كلمة « الشاعر » « بالصانع » .

ولو ان عالمنا الدعي هذا كان قد رأى كتاب « الشعر » لرجع اليه بدلا من اخذ القضية كما حملتها اليه طالبته في قسم اللغة الانجليزية من كتاب مقرر عليها في دراستها . ذلك ان أريسطو المنبع لهذا التفسير . ولعل أريسطو فيه يستند على ما لا يعرفه غيره من قديم اللغة اليونانية . وكانت البديهة الاولى في هذه المناسبة ان يرجع الى أريسطو لكنه لم ينظر فيه .

اذن فهو مغالط مرتين : 1 — في اشارته « التهويشية » الى اللغات كلها ، والى نقادها جميعا في عصور تبدأ من عصر أريسطو الى اليوم . 2 — ومغالط في ابحاثه بانه قرأ ما قدمه أريسطو من المصطلحات الشعرية والتقاليد .

ثم ياتي بعد هذا انقطاعه عند ارساله القضية هذا الارسال ، دون تفسير لما يقوم وراء تفسير كلمة « الصانع » بمداولها الحقيقي حين تطلق على الشاعر في رأى أريسطو .

دعاه أريسطو « بالصانع » بمعنى « الخالق المبتكر » . لان الشاعر في اليونانية ينظم في شعره قصة . وأريسطو لم يتجاوز هذا النوع من الشعر القصصي في كتابه « الشعر » .

كتب عن الشعر الملحمي ، وكتب عن المسرحية ووقف . وكله شعر قصصي . والشاعر فيها جميعا قاص : يبني قصته ، ويوفر لها أركانها ، ويوزع في جوانبها ابطاله عاملين مشتركين ، فيرسم لكل واحد منهم شخصيته التي تناسب مع دوره في القصة الشعرية . ثم انه لا بد أن يلاحظ تناسب قصته في مجموعها ويلاحظ عدم قيام التعارض بين مواقفها وبقية المواقف . وهو في هذه كلها « صانع » بمعنى خالق ومبتكر .

ثم انه مع هذه كلها لا يمكن ان نخليه من القوة الاولى ، المهينة لقول الشعر ابتداء وانتهاء المفزة لشخص الشاعر من بين عامة الناس ، القوة التي لا يمكن ان يفنى عنها التعليم ، او ينوب عنها التلقى لتقاليد الشعر وقوانينه ، ومبادئه : هذه القوة هي قوة « الطبع » التي لا يصنع الشاعر او يدفع به في التمام على خط حياته كلها سواها .

ولولا « الطبع » لتهيات موهبة قول الشعر لكل من ألم بقواعد الشعر ، وعرف أوزانه ، وأعراضه ، وآلم بفنون البيان والبديع . وهو ما ينفيه النقاد والعلماء في كل المصور . فلو ان العروض والقافية وعلوم البلاغة كانت كافية — دون الطبع والموهبة —

لخلق الشاعر لكان الخليل بن أحمد في العربية أشعر شعراء الدنيا لا العربية وحدها . فليس في لغات أهل الأرض ، ولا في أشعارها ما يرتقى في موسيقاه ، ولا في أوزانه ، ولا في دقته الى مرتبة هذه اللغة . أقول هذا بعد أن اتصلت الاتصال الواثق بلغات تسع ، وقرأت في آدابها ما يطمئنني الى الحكم الصادق : العربية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والفارسية ، والتركية ، واللاتينية ، لغات حصلنا جيرا وتنظيها في الابتدائية ، والثانوية ، ثم في الجامعة امتدادا لسابقنا ، أو ابتداء جديدا مبني على السابق الذي وضع قواعد تحصيله لوقوعه في جنسه وفصيلته . ثم اتى درست في كلية الآداب اختيارا الألمانية ، وتابعت تلقيها على أستاذ خاص في فرنسا كانت الوزارة تدفع له أجره . ثم دعاني البحث في تاريخنا القديم الى تحصيل « الاشورية » ولى فيها كتاب تام لا يزال مخطوطا ينتظر الطبع منذ سنة 1950 ، وفي المغرب تعلمت لنفسى « الاسبانية » ، أقرأها وان كنت لا أتحدثها . وقد قرأت من آداب هذه اللغات ما يعز في بعضها تحصيله على المتخصصين .

حكى اذن في هذا حكم عارف صادق وليس حكم كذاب دعى . ليست « الفطرة والطبع » اذن بالقوة التي يمكن أن نغفلها عند الحديث عن « الشعر » ، وعن الشعراء ، هما من الحضور والبروز بحيث يمتنع تصور انسان أيا كانت ثقافته منكرا لوجودهما وراء شعر أى شاعر حتى لو كان متكلفا . فانما يبقى على الشاعر في عداد الشعراء هذه النفحة المشتعلة من وراء طرحه . واذا كان تكلف القول ممكنا فان تكلفها مستحيل ، وهى لذلك السند الباقي والبقى لشعر الشاعر ، ونقصها هو السر القائم وراء سقوط الشعر الذى يصنعه العلماء العارفون بقوانين الشعر والبلاغة : نقص هذه الشعلة التى تمد الشعر بسر البقاء .

ولم يكن أريسطو وهو يفسر كلمة « الشاعر » بمعنى « الصانع » بغافل عن ادراك ان هذه المعايير والاصواف التى يجمعها للشعر اليونانى ، وينظفها في كتابه قد خلصت كلها اجتهادا من الإنار الشعرية التى سبقتها وجودا ، وانها عملية تنظيمية ، وعلامات على الطريق قد يستأنس بها الناس جميعا ، ويقراونها للرياضة الفكرية أكثر من أن يقرأوها لتحكيما المطلق في مواهب الشعراء منهم .

فتقاليد الشعر وجمالياته في الآداب تستنبط من واقع الشعر الذى اعترفت الاجيال بجماله ، وراح الناظرون ينظرون فيه ، ويخلصون منه اسباب وقوعه في النفس هذا الموضع ، وسر نزوله من الاجيال المتعاقبة على التعلق به قبل أن تقن قوانينه ، وتنظم قواعده .

وقد يأتى من الشعراء أو الإدياء من بعد تنظيم هذه القواعد ، وضبط هذه المعايير من يدوسها بقدميه ، ويكتب الشعر على عكس ما تقرره ، فيضع بذلك « المقتنين » امام جديد مناهض لقواعدهم يلزمهم مراجعة ما اصطلح عليه ، وتبديله ، أو الزيادة فيه . وعبارة المتنبي في ذلك مشهورة .

ولكن وراء هذا « التجنيس » اللفظى ، المتمثل في ثالث (الصنعة والتصنيع والتنصنع) ، امرا ظل يمرض طه حسين ، ويحرق ما بين أضلاعه عشر سنين كوامل ، كان يريد أن يجد ردا عليه فلا يجد حتى انتهى الى هذا الحل الذى لا أعتقد أنه كان به مقتنعا ، ولكنه كان يرجو به ان يسوق الى عامة القراء قولا لم يجرؤ ان يقدمه لهم بنفسه ، فآثر أن يسوقه لهم على لسان من تقدم له « الدكتوراة » بعمل يقدمه له طه حسين من كتاب ظل يحتبسه سنوات قبل ذلك .

كان طه حسين يلقي بهذا « الثالث » في سوق الفكر على لسان صاحب « الفن

ومذاهبه . . . الخ » ويلقى معه في نفس الوقت بما اعطاه من موضوعي (الجمال الفني في الآيات التي نزلت في غزوة بدر) لصاحبه الآخر الذي قام بما دعاه (بحث لم يسبق في اللغة العربية) وأعلنت الكلية عنه اعلانا استثنائيا فوق لوحة الاعلانات ، ليتم له الرد على ما عجز في سنة 1932 عن الرد عليه من شطرى هذا البحث ، وهما « فلسفة الجمال في الآيات » ا و « وموسيقى الآيات » .

وسأجل اتمام الحديث في هذا الى أن أفرغ من معالجة الترديات التي وقعت في الصفحة الاولى من هذا الكتاب الذي دعاه صاحبه والمشرّف عليه « الفن ومذاهبه . . . الخ » حتى يبتلع به طه حسين أولا : عملي في أبي تمام ، ثم ليقطع الطريق على عملي للدكتوراة ، بتبييد القاعدة التي كان يعرف انني سابني عليها هذا الموضوع ، كان يعرفها لانه كان قد احتال حتى حول الى نفسه الاشراف عليها بعد أن كان المشرّف الطبيعي هو الاستاذ أحمد أمين الذي أشرف على موضوعي للماجستير .

يأتي بعد الفقرة الماضية في الكتاب المنحل أصله قوله :

وكلمة « شاعر » عندنا في العربية تقترب من معناها في اليونانية فالشاعر معناها « العالم » والشعر معناها « العلم » (ومرجمه في هذا كما ينص مادة شعر في لسان العرب) ، والعلم كما يقول ابن خلدون يدخل في باب الصنائع . (وهنا يرد الى مكان في ابن خلدون لا يمت الى حديثه الخاص بالشعر باعتباره المرجع الاصيل لما اتصل بالشعر في مقدمته) وقد تناثر في أشعار العرب القدماء ما يدل على انهم كانوا يحسون بان الشعر ضرب من الصناعات ، فقد جعلوه كبرود العصب ، وكالحل وكالماطف والديباج والوشى وأشبه ذلك ا فهو في رأيهم يشبه صناعة الثياب ، فيه اللون وغير اللون ، فيه الوشى وغير الوشى ، بل انا لنراهم يسمونه صناعة فقد روى الجاحظ ان عمر بن الخطاب قال : « خير صناعات العرب آبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته » .

فالشعر في رأي العرب — كما هو في رأي اليونان — صناعة ، وهي صناعة معقدة تخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر الا ليضيفوا اليها قواعد أخرى ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره » .

وفي هذه الفقرة الثانية من الأخطاء والنقائص في فهم العربية ، وفي التحمك باسماء الاشخاص والمراجع دون اتصال صادق بما قالوه في الموضوع الذي يرى الرجوع اليهم فيه ، مثل ما في الفقرة الاولى .

وأول هذه الترديات قوله : ان كلمة شاعر عندنا تقترب من معناها في اليونانية ، فالشاعر معناها « العالم » والشعر معناها « العلم » . وهو يرد القارئ في هذا الى لسان العرب ، في مادة « شعر » .

فاذا نحن رجعنا الى « اللسان » وجدنا ان صاحبنا قد « أخطأت آسته الحفرة » ، في فهم معنى كلمة « العلم » هناك . وطلعنا على وجه الشخص الذي طلعنا عليه من قبل في الفقرة السابقة ، شخص يتلمس الركائز الصورية لقضية قد بلورت له وحجرت فهو ساع في هوج الى محاولة لتزييف سند لها باى وسيلة .

صاحب « اللسان » قدم معنى كلمة « شعر » بأنه « علم » . ولو انه مضى في قراءة

المادة شيئاً لوجد ان « العلم » هنا كلمة لا تطلق مراداً بها الى المعنى الاصطلاحي الذى لزم اطلاقها على « علم » الرياضيات أو « علم » الفلك مثلا ، وانما المقصود بها الى وقوع « العلم » بأمر ما بالخاطر بعد جملة اليه .

فنحن نقول : علمت ان فلانا جاء وانه ذهب . فلا يفيد ذلك الاستخدام للكلمة « علما » مقعدا مقنا بصنف من أصناف المعارف الانسانية .

ولو مضى فى قراءة المادة لوجد فيها : « ولبت شعرى ، أى لبت علمى ، أو لبتى علمت . وليس العلم هنا الا من باب « الدراية » بالامر . ولوجد قوله : وفى الحديث : لبت شعرى ما صنع فلان . أى لبت علمى حاضرا ومحيطا بما صنع » .

ولوجد « وفى التنزيل : « وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » . وأشعرته فشعر : أى أدريته فدرى . وشعر به : عقله ، واستشعر فلان الخوف أى أضمره .

« والشعر منظوم القول غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وان كان كل علم شعرا » . أى كل من طلع على أمر جديد شعر به ، أو علم به .

ويقول صاحب اللسان تعقيبا على تسمية الكلام المنظوم المقفى « شعرا » : « وان كان كل علم شعرا من حيث غلب « الفقه » على « علم الشرع » ، والعود على المندل ، والنجم على الثريا ، ومثل ذلك كثير » .

وهو من صاحب « اللسان » مضى فى تصوير كيف تتحول الكلمة اللفوية من معناها العام ، بحكم الحاجة الى اطلاق خاص على صنف محدود السمات والملاح ، ولكن هذا التحول لا يفيد انتقالها فى الانادة اللفوية عن معناها الاصيل والاعم فى الاطلاق .

وان ابن منظور ليمضى فى « المادة » على وجهها فيقول :

وقال الازهرى : « الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله شاعر ، لانه يشعر ما لا يشعر به غيره ، أى يعلم » .

ويأتى بعد ذلك : « وسمى شاعرا لفطنته » .

فليس الشاعر اذن — عندهم — بشاعر ، لانه يعرف قواعد الشعر ومصطلحاته وقوانينه ورسومه ، وانما هو شاعر لانه قد وهب من القدرات ما يجعله « يتفطن الى ما لا يتفطن له غيره » ، وهذا هو ما اطلقوا عليه « الطبع » . وتتبعوا فيه الشعراء يقيسون أشعارهم بقدر ما يتها لهم منه فيظهر فى شعر الشاعر ويتضح ، أو يخفى فى شعره تحت ركام من تحرى الجماليات القياسية التى انما استخرجها المفكرون أولا وأخرا من آثار الشعراء ، فالعمل الجميل قائم فى الواقع قبل أن تقدم القواعد على ضوء ما حققه الشعراء .

لم يكلف صاحبنا نفسه قراءة المادة ، ولو انه قرأها لعجز عن التغلغل الى فهم مدلولها الصحيح لانه بحكم انقطاع ثقافته عن مصيها وتممها الحقيقى قد توقفت معارفه فى العربية عند منزلة لا يطمح صاحبها الى ادراك حقيقى لمدلول هذه العبارات .

وقد ارتاح الى الوقوف عند أول عبارة فى المادة معتمدا على ظاهر لفظ « علم » ليختطف منه فى عجلة شاهدا فى قضية خاسرة من أولها حتى آخرها . « فالصانع الذى روى

اليه من « الشاعر » عند أريستو ليس موجودا كما رأينا ، والعالم الذى رمى اليه عند ابن منظور ليس موجودا ، ولا هو يقارب المعنى الذى كان يتمنى أن يربط به بينه وبين « الشاعر » عند أريستو .

غير انه ماض على طيته يعتسف سبيله الى مساندة ما أرادته أسناده على مسانده ، وعلى نفس الطريق ، بنفسى الأداة القاصرة ، مع الاحتفاظ بشمخة المدعى ، وتحسس أسماء المراجع والإشخاص من غير اتصال صحيح بهم ، ومع رضا النفس بالراحة عن الاتصال بالمراجع اكتفاء بالإشارة بالأسماء .

فى مقدمة ابن خلدون فصول تامة عن الشعر ، وعن طريقة تحصيل أدواته ، وأحداه موضوع وضما مباشرا تحت عنوان « صناعة الشعر » ، فى الصفحة (499) من المقدمة ، وذلك مبين فى فهرست الكتاب المطبوع ، (فصل فى صناعة الشعر ووجه تعلمه) .

فلو انه تكلف شيئا من بعض ما يتكلفه الباحثون لرجع الى فهرست المقدمة فوجد فيها ما يحتاج الى الاستنشاء به فى التماس ظاهر من التأييد لما كلف بتقديمه الى الناس من القول بأن الشعر صناعة .

ولو انه رجع اليه لما كان محتاجا الى أن يدور بجناح ابن خلدون لكى يستخرج منه حكما بأن الشاعر معناه الصانع عن طريق استدلال عائر يركب فيه كلمة « العلم » بمعنى « الشعر » التى استخرجها من « اللسان » منحرفا فى فهمها . وراجعا فيه الى أن ابن خلدون قال : ان العلوم من الصناعات .

لكنه كان يتحرى أرخص الطرق ، وأسرها قطعا لبلوغ الغاية . فزاد فى أسماء مراجعه اسم لسان العرب ، ولم يرجع فى اللسان الا الى أول حرف فى المادة ، وقارب فى هذا ما صنعه فى التلويح باسم أريستو دون أن يرجع اليه ، واسم مايكل جونس ، وهو لم يرجع اليه الا فى أقل من سطر يقع فى الصفحة الثانية من الكتاب .

والواقع انه لو رجع الى ابن خلدون حين استنجد باسمه رجعة من يريد صادقا الإفادة من علمه فى هذا الباب فلعله كان يهتدى الى ما قدمته منه فى الصفحات الماضية ، ولوقع على وجه تقريبه بين العلوم المقتنة وبين « الملكة » التى يجدها العربى فى ميراثه ، ويسمى الى تحصيلها المولدون عن طريق الحفظ للفائق من شعر الشعراء المبرزين ، بل ومن نسيان المحفوظ نجاة « بالملكة » من الوقوع فى أسره حتى يأتى الشعر فيضا عن « الطبع الموروث » تضبط انبجاساته على الجوانب ضفاف تقيها تلك « الملكة » .

لا أريد أن أذهب فى هذا أبعد مما ذهبت ، ولو سرت فيه لاطلعتك على التمزقات الشنيعة فى كل صفحة بل فى كل سطور هذا الكتاب الذى اعتبره ظاهرة غير طبيعية فى حركة التأليف فى عصرنا هذا على فقرها ، وجديها وعيشها الطفيلى على كتاب أو كتابين يفتقر الكل منهما دون إشارة الى المصدر الذى منه نهلوا ، وعلى مدد منه عاشوا .

لم أر كتابا كهذا الكتاب يصغ الصفحات المتعاقبة فى مئات ، بعدد من الفكر لا يكاد يزيد على بضع كلمات ، يصبها فى قوالب ثلاثة قديمة وليست جديدة ، وانما انحرف بواحد منها ، أو بمباراة أدق ، بسط أحدها — وهو الصنعة — على ما دعاه النقاد المتقدمون باسم « الطبع » ، وانكمش بنائيهما عند ما أدخله المتقدمون تحت مدلول كلمة « الصنعة » ، وبقي « بالنصنع » عند مدلوله ، ثم مضى باسم هذا القديم المحرف على طريق من الصخب « بالرقم

الموسيقية « ، و « بالالوان الزاهية والقائمة » ، و « بالخلط بين الالوان في ليات « على طريقة مهرجى السيرك في موكب دعابتهم في القرى ، في بدلهم الملونة ، وعلى أنغام موسيقاهم التى يحاولون بها أن يلفتوا اليهم المتفرجين المأمولين . غير أنك في السيرك تشهد بعد هذا الاعلان ألعابا ، أما هنا فانك لن ترى الا الاعلان ، فهو كل بضاعة الفرقة .

كنت أعجب لظه حسين كيف يستطيع أن يقدم ما يأخذه من غيره سطرًا فيعرضه فصلا ، وفصلا فيحيله كتابا ، ولكنى يوم قرأت « الفن ومذاهبه . . الخ الخ » صادفت شخصا قد برع أسناده ، وفاق في هذا الباب الاولين والآخرين . كتاب طويل عريض يمتلىء كله بالعبارات التى تتناول كل شاعر بمعالجة تتلخص في معان مطروقة تلتف كلها حول ثلاثة أو أربعة أنواع من البيان والبديع : الجناس ، والطباق ، والفكرة . . . فاما الجناس فهو « الموسيقى والرقم الموسيقية » ولك أن تزيدها « الاقواس الموسيقية » فقد ألقى بها في عنق « مهيار » المسكين . وأما « الاستعارة » فقد قدمها تحت اسم « التصوير » ، ولون وصبغ ، وخلط بين الالوان ماشاء له الخلط ، وأما « الطباق » فقد تصيد له عبارة شاردة في ديوان أبى تمام ، فدعاها « نوافر الاضداد » وأدخله في مفاجأة غير ناضجة في نسيج حياة أبى تمام نفسها ، وأما الفكرة فقد دعاها « بالتفكير الفنى ، والتفكير الثقافى » و « التفكير الفلسفى » ثم صبغها بدورها « بالالوان القائمة التى يحيلها الى ألوان زاهية » .

فتراه قد غرق في « الاستعارات » شكلا وموضوعا . وإذا كان علماء البيان قد اشتروا في « التشبيه » و « الاستعارة » قرب الشبه ، ووضوح العلاقة بين المشبه والمشبه به ، فان صاحبنا في « فنانيته » المصطنعة ، المصنوعة على أمرها ، لا يتحقق فيها شيء من شروطهم . لكنها للأسف تحولت الى « فكرة ثابتة » والى « ثمرة عقدة » يسعى في لاشعور الى محاولة حلها فتقع منها في حيص بيص .

وأصول هذه التخبطات ، والخلط كلها تعتمد على جزئيات جمالية أخذها من « أبى تمام » من بابين : « القدماء والمحدثون » ، وقد قدمت فيما سبق بعبارات منه أكتفى بها لذلك على منابع « الإلهام المتسامى » لفنانيته المدعاة في غير رفق بالفن أو بنفسه ، ومن « باب الخصائص الفنية لشعر أبى تمام » وهو الباب السادس من أبواب كتابى .

ولقد سقط من هذين البابين على أبسط ما فيها الخصائص الفنية لشعر أبى تمام . ومر في غير شعور بأخطر خصائص « أبى تمام » في هذين البابين ، وفيما عداهما من أبواب الكتاب . فمر بدراستى « لأصحاب اللفظ والمعنى » ، و « بعمود الشعر » ، و « بكلية القصيدة » ، و « القصص الشعرى » ، « وينقل أبى تمام في شعره المدح » الى « التصوير الفنى للبطولة » في الشعر العربى .

ولعله لم يلح خطورة هذه القيم الشعرية لأنها لم تكن مما يدخل « تحت ريشته الفنية الصابغة بالالوان ، المرقشة بالإصباغ » كل ما وقع تحتها .

وقد ظن انه اذا أخذ ما وقعت عنده من « التصوير الموسيقى » في هذا الكتاب ، وما أقراته اياه من « باب الموسيقى في الآيات التى نزلت في غزوة بدر » ، فتجاوزهما الى « الرقم الموسيقية ، والاقواس الموسيقية » — والواقع انى لا أفهمها على الرغم من المامى الماما نسبيا بالموسيقى النغمية بمعناها التحقيقى لا التخيلى — فانه سيستولى على زمام العمل ، ويكون به قد سبق الى ما لا يسبق اليه باحث ، ولعل طه حسين قد ألقى بروعه

هذا المعنى ، كما ألفاه من قبل في روع رفيقه يوم قدمه بالضجيج في كلية الآداب تحت عنوان « بحث لم يطرق في العربية » ، وهو الذى أرشده اليه على هدى ما كان قد هزه يوم القيته في غرفة درسه من « موسيقى الآيات التى نزلت في غزوة بدر سنة 1932 » .

كما ظن انه اذا أخذ ما قدمته من دراسة « للصورة الشعرية عند أبى تمام » (من ص 227 الى 233 من أبو تمام الطائى — حياته وحياء شعره) فأغرقها في الألوان والاصباغ القاتمة والزاهية « التى تحكى أصباغ الطيف » أو كما يقول هو : « منها أصباغ تحكى ألوان الطيف ، وهى أصباغ لا تتقيد بعدد ، ولا بوضع ، ولا بشكل خاص ، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نلاحظ في وضوح أنه كان يعتمد على صبغ النديج حتى يعطى صوره ألوانا حسية ملموسة . » ظن انها مسابقة في التصبيغ ولذلك أصبحت عنده الاصباغ لا تتقيد بعدد ، ولو كانت ألوان قوس قزح ، كما يقول هو .

وأؤكد انك ستجد عنده أعجب من هذه التحف لو رجعت اليه في أصله .

ولم يعرف دلالة كلمة « الصورة » في العربية على « التمثال » فراح يدها « بالتجسيد » و « التشخيص » و « النديج » ، وما تخيلته ، وما لم تتخيله من الإلفاظ .

ومن الغريب الملاحظ انه لم يعرف « للأضواء » — من الناحية الفنية — في الصورة مكانا ، ولا للظلال في ارتباطها بالأضواء أو الأجسام . ولعله في هذا كان يعيش مع أستاذه بقدر ما استطاع فلا تقرب عليه .

كل كلام عن شاعر من الشعراء يوضع في هذه (الكليشيات المحسوبة المودودة) — وما أقل الشعراء الذين مسهم بالقول ، وأتى بهم من خارج من تحدثت عن فنهم في كتابى عند حضور وجه المقارنة بينه وبينهم — وكلهم يقاسون الى تمام . وكلهم أصفر منه .

وانك لتشعر بان أبى تمام هو المحور ، والقطب الذى يدور حوله موضوعه ، وليس ما دعاه « الفن ومذاهبه » .

وقد قلت في باب « القدماء والمحدثين » عن الشعر العربى ما تفرق وتذوب فيه النقط الرقطاء التى أذابها في ماعون كتابه كله . والناظر في الكتابين لا بد أن يشعر بان أحدهما مقلوب الآخر ، بمعنى انى جعلت « القدماء والمحدثون » دراسة أتقدم بها وأمهدها بها القول في دراسة فن أبى تمام وتجديده . وجاء هو فنقل ما أخذه من باب « القدماء والمحدثون » الى جماع موضوعه ، وتظاهر بأنه يقدم « أبى تمام » كشخصية من شخصياته على انها في الحقيقة ابتلعت كتابه كله ، وصارت شخصيات الشعراء جميعا شخصيات ثانوية تدور حول أبى تمام ، وتعمل منه الى عمارة حقيقى الحديث من قديم . ونقل ذلك كتابه الى مؤلفه ، بل أقل ، مشوهين مسيخين من فصول « أبى تمام » .

وهذا العمل قد قدمه طه حسين للناس دون حياء هذا التقديم :

« هذه محاولة طريفة لدرس الفن ومذاهبه في الشعر العربى ، انفق فيها صاحبها وقتا طويلا وجهدا خصبا ، ثم قدمها الى كلية الآداب رسالة للدكتوراة ، فأعجب بها المحضون اعجابا شديدا ، وأهدوا الى الدكتور الشاب خير ما تستطيع الجامعة أن تهديه من درجات التشرىف الجامعى .

« وكنت شديد الحرص على أن تظهر هذه المحاولة للناس لينظروا فيها ناقدين ومنتمعين،

وكنت أحرص الدكتور شوقي على نشرها ، فاجد منه ترددا واستحياء . وانى لفى ذلك واذا حضرة صاحب المعالى الاستاذ الجليل عبد العزيز فهمى باشا يطلب الى أن أؤدى الى الادب العربى على حسابه هو خدمة أرضاها أنا ، فاكهت الدكتور شوقي على أن ينشر سفره هذا ، ولم يستطع أن يمتنع على وعلى الاستاذ عبد العزيز فهمى باشا ، فنشر رسالته كارها ، ونشرتها أنا راضيا .

لا شك فى أن طه حسين قصاص متواضع كما قال له جماعة من مجادليه الشبان مرة . لم يعرف الرجل كيف يفتضى صاحبه فى تقديمه كتابه ، فقلبه حب اعلان انتصاره على حبه ستر نفسه ، وستر صنيعته ، فى موقف كان صاحبه فيه أولى بان يفتضيه .

لماذا يبأى الدكتور الشاب أن تنشر محاولته ، ويبأى استاذه الا أن تنشر هذه المحاولة ؟ وولوع استاذه بنشر هذه المحاولة يبعد به الى حد استجداء عبد العزيز فهمى تكاليف طبعة الكتاب.

والعمل غير عادى بطرفيه . فكل منا يجب أن ينشر كتابه فهمى أمينته وقرة عينه ، وهى كذلك خاصة اذا كان الكتاب هو أول ثمار عمله . هذا من ناحية الطالب . وأما من ناحية الاستاذ فالحرص على طبع « المحاولة » حرصا يبلغ به التماس القادرين على الدفع لاتمام النشر بأجل العجلة ، أمر غير عادى أيضا ، ولا بد انه يستمد وازعه من علة قوية تدفع الاستاذ الى ركوب هذا المركب الوعر ، وخل عنك قوله : انه فى الوقت والساعة التى كان يفكر فيها فى نشر « المحاولة » ولا يجد الوسيلة لنشرها ، يكون عبد العزيز فهمى فى طريق البحث عن كتاب الادب العربى حتى ينشره خدمة لقومه ، فنلتقى بذلك الرغبان على غير تهيئة أو موعد ، هذا يرغب فى نشر « محاولة » ولا يجد المال ، وهذا يرغب فى بذل المال ولا يجد « المحاولة » ، ثم يلتقى الرجلان فينحادثان فاذا بكل منهما كان يحلم بما فى يد الآخر .

والطالب يرفض نشر « محاولته » التى أعجب بها المتحنون جميعا ، وأهدوه جزاء وفاقا عليها خير ما تستطيع الجامعة أن تهديه من درجات التشريف ، وأستاذه المشرف يحرص . والطالب حين يرفض انما يرفض ترددا واستحياء .

ولنفرض ان هذا صحيح ، وان الطالب خلع عن وجهه برقع الحياء فقبل النشر ، ولم تكن هذه « الهدية » التى أعطاها عبد العزيز فهمى قد أتت ، فما جدوى القبول ، واليد قصيرة والعين بصيرة . ويصبح « التحريض » لا طائل من ورائه ، فما الذى يحمل الاستاذ عليه ، ثم على المضى فيه الاجل الذى يمضى بين بدء الإقناع حتى وصول « الهدية » غير المنتظرة ، والطالب وأستاذه لا يزالان يتفاوضان ؟

القصة غير مسبوكة كما قلت .

حتى اذا وصلت « الهدية » انحلت عقدة الحياء — تحت ضغط المهدي والاستاذ (طبعا) ، وذهب التردد ونشر الكتاب ، والاستاذ راض ، والطالب كاره .

من يقرأ هذا الكتاب — حتى قبل قراءة ما كتبه عنه — يرى كل ما يناهض منه صفة الحياء أو التردد . ففيه اقدام على القذف بالاحكام الحاسمة القاطعة فى مواقف لا يستحسن فيها ، بل لا يقبل الحسم . وفيه اعجاب لصاحبه بنفسه يتجاوز الثقة بها . وليس هذا أمر من يستحى أو يتردد ، وما أولاه كان بالتردد والحياء وهو يعرف من أين أتاه ما بين يديه .

والواقع ان هذا الذى كان صاحب المحاولة يجده من نفسه هو التردد والخوف من

الإقدام على الهوة التي كُذف به إليها أستاذة ، والقناعة بما نال بالعمل المنقول من الشهادة المرتجاة من غير انتها .

أما الأستاذ فكان أبرأ من أى معنى من التردد لانه كان قد بدأ طريقه منذ سنوات في العمل على تبديد كل ما ظن انه رأس مالى ، وعدنى في تحقيق التسلع لمستقبلى .

كان قد استولى على بحثى « أبو تمام الطائي » مذ وقع في يده بعد أن أنتمته في بعد عنه أيام أخرج من الكلية ، فلم يتمكن من الحيلولة بينى وبين اتمامه ، ولما عاد واشترك في مناقشتى لم يكن يستطيع أن يلعب لعبة « التخريب » ، وأستاذ الرسالة أحمد أمين ، فلم يتجاوز سهمه في هذا أكثر من التأثير على عضو لجنة المناقشة الثانى ، فجاء لذلك تقديرى بدرجة الشرف الثانية في كتاب أستطيع أن أضعه وأنا مطمئن بازاء أعلى أبحاث « الدكتوراة » في أى كلية للاداب ، وهو بحث قد حصلت به على الماجستير ، والكتاب في السوق يتحدى من شاء .

وكان البحث في نتائجه هدمًا عنيًا وقاسيًا للسخافات التي قدمها طه حسين من قبل ذلك عن أبى تمام نقلًا عن جيب ، كما كان عصفاً بكثير من تفاهاته التي ظل يرغب بها عن الجاهلية نقلًا عن المستشرقين .

ولعل طه حسين لم يكن غاضبًا على الكتاب من أجل نفسه ، فلقد كان معروفًا فيما بينه وبين الناس انه لم يقدم يوماً فكرة لنفسه وصل إليها مستقلاً في بحثه ، ولم يكن ينكر انه يأخذ عنهم ويذيع آراءهم ، ولم يكن يجد في ذلك حرجاً أو باساً . ولكنه كان غاضباً لقيام طالب علم جديد يلقي المستشرقة هذا اللقاء ، ويزنزل بآرائهم ، وأعمالهم التي داخلها معهم هذا الزلزال ، فلقد كان في هذا هدمًا مهمًا التي وقف نفسه عليها في خدمتهم عينا وتحديداً .

لذلك كان لا بد أن يحبس الكتاب ، فاحتال على حتى أخذه بحجة طبعه على نفقة الجامعة بعد أن كان أحمد أمين قد اتفق مئى على طبعه على نفقة لجنة التأليف والنشر والترجمة ، وقد استأذنت في ذلك أحمد أمين فقبل كارها ، ثم خدعنى مرة ثانية حتى حول الى نفسه الإشراف على رسالتى للدكتوراة . فكان يعرف أن موضوعها استمرار وتتمة للعمل الذى عملته في خدمة « أبى تمام » ، وأن الارضية التي سأبدا باقامة البناء فوقها هى باب « القدماء والمحدثون » الذى اتخذته في « أبو تمام » القاعدة التي أبنى عليها دراستى لفنه الشعرى . وقد ظل يحبس « أبو تمام » ثمانى سنوات ، ولم يرد النسخة الى الا بعد مواجهة قامت بينى وبينه على مدخل الكلية وأمام فريق من الطلبة سنة 1944 بعد مباطلته لى عاها كاملاً وبعد أن رأيت « الفن ومذاهبه » وقد لقيت يومها أحمد أمين وكان لقاء قاسياً . ووعده أحمد أمين بتشكيل لجنة للتحقيق ، وقلت له : ان نسخته من البحث بين يديه في مكتبته وأنه قادر على أن يعود الى قراءتها . ولكن فكرة تشكيل اللجنة لم تلبث ان تبخرت بعد أن لقيه طه حسين .

ثم نظر طه حسين فذكر اننى كنت قد قدمت في درسه بحثًا في « الجمال الفنى في الآيات التي نزلت في غزوة بدر » . وكان من الطبيعي أن يتصور انى سأتكى على نتائج منه في بحثى للدكتوراة ، ولم يكن لديه لهذا البحث أصل مكتوب بين يديه ، ولكنه كان يستبقي منه صورة ذهنية فانطلق الى الشطر الخاص منه «موسيقى الآيات » فراح يلقن منه ما تها له لصاحبه الذى قدمت الكلية عنه ذلك الاعلان الغريب الذى لفت نظرى وتوقفنا عنده أنا ومنشئ « الفن ومذاهبه . الخ » ، وكان عنوانه (بحث لم يطرق في العربية) ، ويومها طلب منى القسم

الخاص بدراسة « موسيقى الآيات » فقدمته اليه ، فكان لا يزال يلهج به بعد أن قرأه أمام كل من رآه من معارفنا . ثم انى كنت قد أعدت منه في دراسة « الفاظ » أبى تمام بقدر ما يتناسب مع الفرق القائم بين نص قدسى وبين شعر لا يلتقى مع (القرآن) في شيء من القدسية .

وكان يطلب في ذلك اليوم ما يعرف ، فلقد حضر القاءه في الساعات التي وكل الي فيها طه حسين أن ألقى بالبحث ، ثم كانت بين يديه عينة من تطبيق مبادئه فيما قدمه اليه طه حسين من أبواب (أبو تمام) .

وقد قدمت ببعض الحديث عن شطر هذا البحث الخاص « بالموسيقى في الآيات » ، ولك فيما مر من نقول نقلتها في تقديمي هذا نموذج من تطبيقها ، وفي جوانب الكتاب صور منها .

وأنا جدير بأن أقدم لك صورة مختصرة عن شطره الثاني الذي أدركته حول « فلسفة الجمال القرآني » ، فقد ترك هذا القسم أثره العميق المؤلم — فيما يبدو لي — في نفس طه حسين الذي كان ينطوى على عداء معروف للإسلام ، ولكل ما اتصل به ، ثم انه كان ذا دفع بالغ لظه حسين على الاحتيال في نفي « الطبع » في الشعر في كل مراحلها : ذلك انى وصلت في هذا الشطر الفلسفى بين قوتين انسانيين يقومان في التكوين الانسانى مقام العاملين الاساسيين في تحقيق الإدراك ، والتكامل في تكوين العقل بمعناه الأوسع وهما :

1 — العقل . 2 — الإلهام

وقد دعوت الاول منهما : العقل المنطقى .

ودعوت الثانى : العقل الإلهامى .

وقلت هناك : ان الانسان لا يتم له كامل الإدراك الا بعمل هاتين القوتين المدركتين متآزرتين .

وقلت عن الاول انه هو القوة المدركة التى تحقق نتائجها عن طريق الاستدلال والاستقراء لتحقيق النتائج .

وقلت عن الثانية : انها القوة المدركة لحقائق الامور عن طريق الحضور المباشر لهذه الحقائق في الوعى دون اتصال بالسبب الحامل لها من وراء الغيب .

وضربت مثلا لعمل هذه القوة يعتبر في ذاته دليلا قاطعا بوجودها . فالواحد منا قد يكون على بعد ألف ميل ممن يحبه ويتعلق به ، أو مما يهتم له فاذا به يقع في ادراكه ان أمرا بعينه قد حدث هناك . ولعل هذا الإدراك يتضح ، ويتجلى بوجهه حتى ليخيل لصاحبه انه يرى موضوعه رؤيا بصيرة . وقد ينقبض لامر أو تنبسط له نفسه ، ويلج عليه الانقباض أو الهم لا ينفك يعاوده فلا يخلص منه . ثم تأتى الأيام بعد ذلك بما يحقق صحة ما أدركه رؤيا بصيرة ، أو بسبب ما شعر به من انقباض أو سرور .

وإذا كانت مقدمات الامور تقاس بنتائجها فان قسوى هذا الإدراك الباطن تحقق من أنواع المعرفة ما يدخل في النوع مع ما يحققه العقل المنطقى في تخريجه النتائج من الاحداث ، ولذلك ابحت لنفسى ان ادعو القوة المتلقية للمعلم الإلهامى « العقل الإلهامى » .

ثم قلت : ان « الطبع » يقع بين المنطقتين ، اذ انه اندفاع طوعى نحو عمل معقول أو

محسوس ، على هدى قوة تكفل سلامة الاندفاع ، وتحقق من الخير به ما قد يفوق في سلامته كثيرا مما يحفظه العقل الواعي والادراك البصير .

وقلت انه في ميل الى جانب « العقل الالهامي » يقوم مقام السر الكامن وراء قدرة الشاعر على القول الذي يتسامى حتى تضء فيه شعلة الروح اضاءة تكاد تمس به القدسية حتى لقد ظن الناس ان للشاعر موحيا . والنبس الشعر لذلك عليهم بالوحى عند ما قراوا القرآن الكريم ، أو سمعوه قبل أن يؤمنوا . ثم انهم آمنوا بعد أن تفتحت بصائرهم على مبلغ ما يفرق في النفس بين شعلة من نار ، وطاقمة من نور .

وذلك انه من الجانب الآخر من « الالهام » تقع منطقة الوحى . ولكن البلوغ اليها رهن بقدرة الله ، ومنة منه يهبها لابنيائه وحدهم ، ويبلغهم فيها وحيه بالطريق التي يختارها لكل منهم .

ويخيل لى ان هذا التفسير للوحى قد صفع وجه طه حسين يومها بما الهبه ، وأحرق لبه . فانتقل يئنئ على ثناء لا أزال أذكر بعضه ، بالغ فيه حتى أخرجنى ، وحتى أثار حفاظ تنطوى على الحسد ، وأحسى طه حسين ذلك بفريزة من يلتقط الإنفعالات بفريزة المكوفين . فعاد يعقب على هذا الانطباع الذى باغته بقوله : « ولكن . . . » ثم لم يفصح عن شئ ذى بال ، وأنهى حديثه وخرج فأرسل الى رسالته التى وصفتها من قبل .

كره طه حسين ذلك كره المستشرقين له ، ولعل ردى الذى لا أشك فى أن عبد العزيز أحمد قد أبلغه اياه قد أسخطه ، وساقه الى كثير من تدبر الامر ، ولكن النقل من الجامعة جاءه بعد قليل فذهب .

لذلك ظل يفكر فيما يرد به ، ولم يلحق بشئ من ذلك الا بعد نحو عشر سنوات . لكنه لم يكن ليجرؤ على لقاء القضية لقاء صريحا ، وظن انه بسوق ما ظنه ردا لها على لسان مختار « التجنيس » القديم بين « الصنعة » و « والتصنيع » و (التصنع) بالغ أملا أكبر اذا اقترن هذا بتملك غيرى ما استخرجته بعملى ، وما كان يظننى بحرمانى منه ، ويسبق غيرى اليه سيقوع فى نفسى الياس من بناء الدكتوراة على أقوال ، وان كانت من عندى الا انها فى الظاهر قد سبقنى اليها غيرى .

وكان يعطلنى عن « الدكتوراة » عمليا برفض لقاى فى موضوعها ، والقيام المعادى لكل من فكرت فى نقل الاشراف عليها اليهم عنه . وطال الامد ، وانبعث الاستاذ أحمد الشايب فى هدوء يسألنى : الى متى : لقد حصل على الدكتوراة أقل الناس وانت قائم تنظر اليهم ؟ انسا على استعداد لان اذهب الى ايهم شئت فارغمه على المضى معك فى الطريق . اختر من شئت . وقلت له يوما : أنت .

وشققنا الطريق بين جدارين من نار المؤامرات ، وعلى شفا جرف هاوية من المراقيل ، ولكننا مضينا . حتى لجنة المناقشة التى على طريق تكوينها الشوك الدمى ، وعطلتنا التخطيطات أكثر من شهر . ثم جاءت التهديدات لى وللكلية . ثم كان الرجاء آخر الامر لتأجيل يوم المناقشة بعد تحديده ، وترك حق البت فى ذلك لى فأبيت الا أن تتم فى اليوم الذى حدد لها بعد طول الانتظار . وتمت المناقشة ، ولم تهد الى « الدكتوراة » ، ولكنى أخذتها بفضل شجاعة أحمد الشايب أولا .

ومن يومها سلت طه حسين كل ما يستطيع حشده من وسائل العمل التى كان يجيد

اختيارها على كلية الآداب ، لكن الكلية كانت على الرغم مما حشد فيها من « زعانفة » ، وعلى الرغم مما كان يستجد به من قوى خارجة عنها أفادها من عمله بالسياسة ، كانت قد رشدت فقطعت يده عنها ، وما كانت قد انفكت يوما عن الامتداد الى قلبها للعبث بها . وكان مدير الجامعة الدكتور عبد الوهاب مورو سيد جراحي مصر ملاكها الحارس .

ومضت الجامعة على الطريق التي كانت كفيفة بان تقودها ولو بعد وقت الى السلامة . ولكن مصر كلها لم تلبث أن هبت عليها ريح الاستبداد الفردى حتى كادت بعصفها تقنطع كل كيان وتطفئ كل شعلة . وعاد طه حسين يتسلل تحت الظلام فانهارت كلية الآداب أول كلية .

كانت هذه هي الطريقة التي اتبعها طه حسين في بناء هيئة التدريس في الجامعة الأولى ، ثم وكلت اليه الإقتدار انشاء الجامعات الأخرى فكانت تنشأ كل واحدة بقررا مكتوب ، وتنفذ بتبديل عناوين المدارس المتوسطة باسم الكليات .

نمنا وأصبحنا فاذا باللائمة المعلقة على باب « مدرسة الفنون والصنائع » قد صارت الى « كلية الهندسة » ، ومدرسة الزراعة المتوسطة بمشتهر قد صارت « كلية الزراعة » .

ثم كان دور تكوين هيئة التدريس ، فصار المعيد الذي يختاره طه حسين أو أولياؤه يصير مدرسا ، والمدرس يصبح أستاذا مساعدا ، والأستاذ المساعد أستاذا كاملا ، ورئيس قسم أحيانا .

وكان على الأيام بعد ذلك أن تصلح ما قدمه طه حسين بيده بوصفه منشاء جامعات .

وهناك ظاهرة تصرخ بين الظاهرات في حياة كلية الآداب في عهد طه حسين : وهى استئراء النفوذ اليهودى في الكلية : كيانا وفكرا وتأثيرا ودفعا . فلقد كان يعمل فيها على عهده ، وبطلبه ، وتنظيمه من اليهود اسرائيل ولفينسون ، وقد سلحه طه حسين بالدكتوراه ، وقدم رسالته للناس في طنطنة عالية ، وهى دعاية صهيونية صرفة . وشاخت ماسخ كتاب « تراث الاسلام » في صورته الاخيرة . وشادة الكز الفظ الذى كان حقهده على العرب يأكل قلبه ، وجهله بالعربية يطل من عينيه ويجرى على لسانه ، وكراوس الذى كان يحج كل عام الى الجامعة العبرية بالقدس ليلقى من « التوراة العبرية » قسما يزعم انه شعر منظوم في بحر « الرجز » العربى ، لا يعبأ ، في تعصبه الرخيص ، بضحكات اخوانه اليهود من اساتذة تلك الجامعة ، وسخرينتهم به ، وهو يقرأ عليهم « توراتهم » في تشكيل صوتى كاريكاتيرى يخالف كل ما عرفوه وعهدوه من منطوقها ، وذلك رجاء منه ان يطوى منطوقها لوزن « مستفعلن مستفعلن » ، ليقول لهم : ان العرب قد أخذوا وزن شعرهم عن اليهود . وجاك كوهين الذى ما كاد يتخرج من قسم اللغة اللاتينية بالكلية حتى عينه طه حسين به معيدا ، وما كاد يفتتح امام عينيه أول ثقب الى اسرائيل حتى اندس فيه طائرا اليها .

ثم ما كان من التوازي التاريخى الذى وقع في سنة 1925 بين كتاب مارجوليوت اليهودى وهو لا يزال يطبع في لندن بالانجليزية وفيه يبشر بنظرية « انتحال الشعر الجاهلى » ، وبين عمل طه حسين في كلية الآداب محاضرا بتلك النظرية قبل ان يظهر كتاب مارجوليوت فى الاسواق ، وقيل ان يطبع كتابه « فى الشعر الجاهلى » في سنة 1926 . وطه حسين لم يكن يعرف من اللغات الأجنبية غير الفرنسية ، فلا تعلق له بقراءة كتاب لم يظهر بعد ، وفى لفة لا يعرفها . وهذا يكشف عن طبيعة المنبع الواحد الذى كان ينشر في وقت واحد بعمل الرصيفين : وما هو الا من ثمار عمل (المجموعات الديرانية) ، الداخلى في اطار خطة تهديم التاريخ العربى

التي أشرت إليها .

وما جاء بعد ذلك من فتح طه حسين أبواب قسم اللغة الفرنسية في وجه طلبة الليسيه المتفرنسين ، وأغلبهم يهود ، وبذلك سدها في وجه خريجي البكالوريا المصرية العربية ، بحكم عجزهم عن منافسة هؤلاء المتخصصين في الفرنسية . ثم ما كان من الغائه شرط تعليق التحاقهم بالكلية بامتحان « معادلة » في العربية عند دخولها ، ثم تدرجه الى اعفائهم من أداء امتحان في « العربية » خلال سنى دراستهم بالكلية . (وقد لجأ طه حسين الى هذا التبديل للأنحة الكلية بعد أن سقط منهم في عام واحد خمسة أشرفت انا فيه على التدريس لهم ، والقيام بامتحانهم : خمسة كلهم يهود ، لا أزال أعرف اسماءهم واحدا وواحدة ، وكانوا مجموع طلبة هذا القسم . ومنهم اثنان اشتركا في قتل اللورد موين - وزير الشرق الاوسط - الذى كان مناهضا لتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية) .

ثم كان عمله بعد ذلك في مؤسسة النشر الصهيونية (الكاتب المصرى) لم يفارقها الا بعد أن هدمتها تقابل النوار المصريين في سنة 1947 .

أضف الى هذا انه لم يحرك خاطره أو قلمه ثورة العرب جميعا في وجه تحويل فلسطين الى دولة يهودية ، لا قبل التحويل ولا بعده ، فلقد عاش في غيبة تامة عن هذه القضية العربية .

وطه حسين كان يقول انه من أصل يونانى فلم يضاف الرجل الى العرب كرها ؟ ولم لا ينسب الى اصل أجنبى وكل حياته وعمله يشير اليه ؟ ولا أريد ان هذا من الناحية الفكرية ففكره الخاص أنه من أن يرد الى أى جنس ، انما كان بوقا وقناعا يصوت من ورائه الاستشراق .

لقد ظن أن «مستقبل الثقافة» من عمله ، وما هو الا تمطيط مشوه لتقرير كتبه نجيب الهلالي وهو وكيل لوزارة «المعارف» الوقدية ، وعثر به طه حسين على رفوف مكتبه يوم عمل مستشارا للوزارة ، وعاش به في عهد هيكال الذى كان يدعى من قبل ذلك انه فارق عنعناته الأوروبية ، وانه أصبح يعارض طه حسين في تتبعنا أوروبا . حتى هذا التقرير الذى كان يقدم وجهة الوفد في اصلاح التعليم أخذه طه حسين فصيره دعوة الى الأوروبية . وهى ظاهرة تسجل .

وبعد فلو لم يكن طه حسين كان يدا وبوقا للاستشراق ، وداعية له ، ومحققا لاهدافه ما جرى قلمي باسمه في هذا الكتاب . وقد قلت له هذا كله في اجمال مؤد صادق ، وهو في قمة السلطان الذى ألفت به اليها التضاربات السياسية . ولقد كانت هذه الاضطرابات المتعارضة المناقضة تؤلف في النقاءها ما يشبه الدوامه المرغية في الماء المتزاحم في مجرى النهر الفياض نجدها تبتلع الاجسام الثقال اذا سقطت فيها فلا تطفو ثانية ، ولكنها يطفو على وجهها الزبد ما دامت مرغية ، ويتصاعد من قاعها القش والهشيم فيبقى دوارا على وجهها ، وكذلك عاش طه حسين .

لقد واجهت الاستشراق في حقيقته ، وفي بوقه طه حسين ، واعتقد انى هزمته ، وكان كتابى « تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى » الحاجز الذى قام بين عهدين: عهد الاخذ باقوال المستشرقين ، والرغاء بها في نغمة ترتفع تحت اسم « التجديد » يتعلق بها كل من اراد ان يتظاهر بانه ابن العصر وانه غير متخلف عن السير في طريق المتحضرين ، وعهد أبرزت فيه قيمة التاريخ العربى ، وصححت ما اعوج منه والتوى بايدى القوى الشعبوية القديمة والحديثة ، وتقدمت فيه الى الناس عن طريق البرهان العلمى بقيمة لغتهم العربية ، وبقدم تاريخها ، وبحقيقتها الفاتنة الرائعة الجميلة حتى لتتصاغر امامها كل لغة سواها ،

وأخرجت للناس الشعر العربي بمقوماته الدالة من ذاته على حقيقته وقدمه ، وعلى صلته بزمانه وبتاريخ الشعب الذى قاله تعبيراً أميناً عن حقيقته ، ووضعت الحضارة العربية موضعها الاصيل من حضارات الشعوب الاخرى ، فكانت تبعها ومغذيها الاول ، وأرخت الامة العربية باعتبارها كياناً عضوياً واحداً تبدأ تاريخ الدنيا ، فى مواطنها الابدية وتبلغ الى يومنا هذا فى جلال تكوينها ، كانت تغفو لتسترد أنفاسها ثم تستيقظ لتتم على طريق بناء الحضارة الانسانية التى بنتها بدءاً وعودة . ولم اصنع ذلك دعاية حماسية ، ولكنى قدمته تاريخاً صحيحاً معززاً بالبرهان والدليل العلميين لكى يكون الايمان به ايماناً علمياً .

وقد فعلت ذلك فى كتاب ظهر للناس وقرأوه قبل أن تصيح « القومية العربية » كلمة للتجارة السياسية ، ووسيلة من وسائل الزلغى الى الحاكم . بل انى بدأت قبل أن يظهر كتابى فى سنة 1950 اول ظهور ، وذلك منذ بدأت ادرس الادب الجاهلى فى جامعة القاهرة ، فطردت من كلية الآداب طه حسين قبل سنة 1950 طرداً ابدياً قبل ذلك باربع سنوات . ثم طردته نهائياً من سوق الفكر بعد أن ظهر الكتاب للناس . وبعد أن التقينا فى صراع على صفحات الجرائد فى سنة 1951 حتى قيل لى يومها : ستكون عميد الادب العربى بعد سنتين . وضحكت ساخراً فانى لم احقر لقباً كهذا اللقب الذى قدّمت به الى الوجود المزيف امرأة كانت تعيش لنفسها .

وقد نقل لى الدكتور الرجال ، وكان أيامها رئيس جريدة الاساس التى كانت الساحة التى لقيت على صفحاتها طه حسين ، عن الاسناد شوكت التونى المحامى المعروف انه قال له : اليوم بداننا نعرف طه حسين من هو .

وبذلك سكت بوق الاستشراق ، وراح الاستشراق يشعر بالنهاية المقترية ، فنزلوا بانفسهم الى ساحة العمل فظهر كتاب تاريخ المستشرقين يرجو ان يذكر بالقوم فكان تائبين لهم ، ثم ظهر التاريخ الذى وضع تحت اسم بلاشير ، ملخصاً لما كان عند « المجموعات الديوانية » مما أثمره عمل هذه المجموعات المخطط للوصول الى تحقيق أهدافهم من الاستشراق ، كما ظهر من آثار عمل هذه المجموعات ما وضع تحت اسم بلاشير نفسه وما دعوه « ترجمة للقرآن » ، وما هو الا مسخ جاهل أظلمت نفسه بالحق على العرب والاسلام.

لكن هذه كلها كانت تمثل فى حقيقتها الانفاس الاخيرة للاستشراق فلم يلبث أن مات بالفناء نفسه . او بالفناء الاسم الذى عاصر موته . وانقلب أصحابه الى جماعة أخرى ترجو ان تبدأ حياة جديدة لا تنسى فيها أهدافها القديمة ، وإنما تغيب فى زحمة جماعة أوسع . ولكن قوى الامة العربية لها بالمرصاد .

والحقيقة التاريخية ان طه حسين قد لقي من قلبى خصوماً كثيرين لما جاءوا الى مخلصته فيما قدمه من سخافات فى الادب وفى التاريخ لم ينزلوا الى الموضوع مباشرة ، ولكنهم راحوا يعالجون منطقته فى الاستدلال ، وفساده فاقاده ذلك الشهرة ولم يضره ، لان جمهرة الناس لا يقفون عند هذه الجدالات العقلية الصرفة وكان غول الشك الذى أطلقه الاستشراق على عقول الناس قد أحدث فراغاً تاريخياً خطيراً لم تملأه هذه الكتب . ولذلك مضى الناس على الاضطراب فى الفراغ الناشئ عن اهتزاز القيم الدينية والتاريخية ، وراح الكترون منهم يملأون هذا الفراغ بما سموه لهم « المنهج الحديث » ، او يقفون عند ترديد القديم على تناقضاته بما دسخته فيه الشعوبية الاولى . فلما جاءهم كتابى وجدوه قد ملا الفراغ الذى لم يملأه احد بعد اشاعة الشك فى كل شيء .

ولقد تنبه المستشرقون الى هذا الفراغ الذى أحدثوه فسمعوا الى ملئه بما قدموه فى كتاب « العربية » على لسان فيك ، وبما ألقوا به على كفى بلائير الضيقتين ، فسقط ما قدموا لان الفراغ كان قد امتلا .

تلك صفحة من صفحات التاريخ أكتبها لان التاريخ أقوى من الزيف ، وأشد جبروتا من العواطف ، ولقد أقت بي الإقدار فى عمره ، وقذفت بي فى عيابه ، فلم أختره لنفسي ، ولعلمى لو ردتنى الأيام الى الماضى ووكلت لى اختيار طريقي على ضوء تجربتى ما اخترت الا ما اختاره الله لى . أقول هذا صادقا والله شهيد .

وهذا كتاب جديد ، أسأل الله أن ينفع به ، وانى لامضى فيه على الطريق السوى لا أدع للهوى فيه مجالا ، وانما أنلمس فيه الحق ، ولقد تانيت فى دراستى ، وتريثت فى اخراجه لى انضج معارفى ، ولكى أستعرض فيه النتائج على مجرى الزمان الطويل ، لاستبين عيوبها ان كانت فاصلحها ، أو نقصا فاتمه .

وستلقى فى هذا الكتاب بعض النتائج والاحكام التى تتعارض مع بعض ما قدرت له الصحة وأنا أكتب سابقيه ، ثم تكشف لى الامور على ما ينقضه أحيانا فنقضته أو بدلته . ولا أزال عند رأى فى وجوب ان أبقي الكتاب على ما ظهر عليه اول ظهور ليين ذلك قدر ما بدلت الدراسات الطويلة من نتيجة عملى .

هذا واحمد الله اولا واخيرا ، وأسأله السداد والتوفيق . .

الرباط فى السابع والعشرين من

نجيب محمد البهيتى

مارس سنة 1978

